فصل عن الاعجوبة التي صارت بانطاكية والبيعة التي بنيت بها لسيدنا مار برصوم

نقص هنا خبر الاعجوبة التي صنعها القديس مار برصوم بكورة انطاكية : في سنة ١٤٦٢ يونانية صعد صبي من نبلاء الافرنج الى شجرة تين ، لان الاشجار في المدينة كانت كثيرة ، وكانت المدينة تبدو كالفردوس ، فحدث ان وقع وكسر حوضه فعالجه الاطباء كثيرا ، لكنهم لم يستطيعوا ان يشفوه ، فتحول الى مقعد ، وقد تألم والداه جدا عليه لانه كان وحيدا لهما ، وخافا ان تنقرض سلالتهما من شجرة نسب النبلاء والملوك ، وقد انفقا عليه ذهبا كثيرا ، وتعبا من كثرة التجول به على الاطباء ، لكنهما لم ينتفعا شيئا في هذا ، وبعد حوادث جوسلين اشتهر الطوبائي مار برصوم باعتباره قديسا يصنع العجائب وسرى اسمه على افواه الناس ، وكانت ام الصبي تقضي كل وقتها بالصلاة والنذور ، وتسأل الطوبائي شفاءا لابنها فحضر راهب من الدير يحمل ايقونه القديس كالعادة ، فادخلته الى البيت باحترام وتباركت من الايقونة ، وبعد يوم تراءى القديس للمراة وهو يشبه الملك بمجد عظيم ، فسألت في حلمها من هذا الملك ؟ فقال لها الجمع مار برصوم وسمعت الطوبائي يقول هذا اريد ان تبني لي بيعه،وكذلك كان الراهب قد راى القديس يقول له : قم امض لدار هنري الافرنجي ، وفي بستانه اقم لي بيعة ، وجعله يرى ثلاثة مذابح ، ثم عاد فراى الرؤيا عدة مرات ، ثم هدده ، حينئذ خاف الراهب واعلم المطران باسيليوس رئيس الرها بما راى وبما قيل له لانه كان في تلك الفترة في انطاكية ، فتشكك الاثنان ، لكن سرعان ماتى والدا الصبي ، واعلمنا بما رات الام ، حينئذ اخذ الراهب المطران معه واخذوا ايقونة القديس ، ومضى الجميع الى بيت اولئك الافرنج ، ووقفوا يصلون فوق الصبي المريض ، ولما اكملوا الصلاة ، ورجعوا ، وبينما كان ابو المريض وامه يتضرعان

حوله ويطلبان له الشفاء ، نام ذلك المريض ، ثم بغته صرخ بصوت عظيم ، وقفز واقفا على رجليه فخاف ، وفزع الابوان وكل اهل البيت ، ونظروا فراوا يد الصبي منبسطة وكأن واحد قد امسك بها ، فعلموا انه راى رؤيا ، وعند ذلك سالوه فلم يجب لكن مضى وقت طويل ويده اليمين ممتدة ، وهو ينظر الى فوق ، وكان مبتهجا ، فقام ابواه بسرعة وهيئا المصابيح واحرقا البخور ، واجتمع جمع كبير ، حينئذ اعلمهم الصبي قائلا : انه قد ظهر لي الطوبائي مار برصوم ، وكان يمسك بيده صليب عظيم من ذهب يبرق كالشمس ، وامتلا كل البيت نورا منه ، ومعه جمع من الرهبان ، ثم امسك بيدي واقامني وقال لي قم لاتخف لاجل ايمان ابويك وتضرعهما ، هاقد اتيت ، فقلت له : كيف اقدر ان اقوم وهاانذا كسيح؟عند ذلك مس مكان الكسر فشفي ، وقمت .

وهذا صار فعلا ، ولايقدر احد ان يشكك ان ليس المسيح ربنا هو الذي حل بسيدنا مار برصوم ، كما قال : ان من يحفظ وصاياي يعمل الاعمال التي اعلمها ، ويعمل اعظم منها ، لان الرب قد حل بقديسيه ، وهو يجعلهم يفعلون مايشاء ، وحينئذ اخذه ابواه وهما ممتلئان فرحة ، ماشيا ، والجموع تتبعه ومضوا الى البيعة الكبيرة ومن هناك الى عند الملكة ، واجتمع عندهم نبلاء الافرنج وباقي الجموع من أرمن وسريان وافرنج ، واتوا الى المكان الذي صارت به الاعجوبة ، حيث دل الصبي على المكان الذي ظهر فيه القديس ، فسترت الملكة وجهها ، واخذت تبكي ، وصارت الجموع تتبارك بالتراب ، ثم اخذوا من هذا التراب بركة الى كل الاماكن ، ثم ابتداوا ببنيان البيعة ، وصار الراهب صليبا وكيلا ، اما العجائب التي صارت اثناء بنائها فلا يمكن ان تذكر هنا،ثم مضينا لتكريسها مع رهبان الدير ، وكان هذا يوم الاحد ٩ كانون الاول سنة ١٤٦٨ يونانية ، وكان ذلك في ايام رنجر حاكم انطاكية وبلدوين ملك القدس وهمفري بطريركهم ، ومار اثنا سيوس بطريركنا ، وحضر تكريسها حاكم قيليقية طوروس والملكة وهنري وامراته ديما يزيل ، اعني اليصابات ، وباقي نبلاء الافرنج وشعوب الأرمن

والسريان ، وعدد كبير من كهنتنا وشمامستنا ، وكهنه الأرمن والافرنج، اما اليونانيين المبغضين فقد احترقوا بجسدهم ،،وبحمد الله في قدسيته ، الذي له المجد الى الابد امين .

ذكر المشاجرة التي نشبت بين اغناطيوس المفريان وبين رعيته

خرج من امد البطريرك اثناسيوس وتوجه الى قلعة زياد ، وبهذا الزمان مات الاسقف الذي هناك ، وحينئذ مكث البطريرك في ذلك الموضع ثلاث سنوات ، ورسم بها اسقفا تلميذه سرجيس ، الذي دعي ايوانيس وبعد مارسمه ارسله الى امد ليتفقدها .

ولما كان البطريرك في قلعة زياد اتى اليه اغناطيوس المفريان رئيس اساقفة تكريت والمشرق ، وكان مجيئه لهذا السبب : قضت شريعة المشارقة منذ زمن قديم مضى ان يرسم مطران تكريت ـ اي المفريان ـ مطرانا لنينوى والموصل ، لكن ماان يرتسم هذا وينتخب ويصير مطرانا لهذه الرعية الكبيرة يتوقف عن الخضوع للمفريان كباقي رؤوساء الكهنة في تلك الناحية ، لكن يصير معه بالمرتبة نفسها ، ولهذا السبب كانت تحدث دائما خصومات في ناحية المشرق ، ويوضح كتاب دانيسسوس التلمحري ان هذه العادة بدات منذ عهد قرياقس البطريرك ، ولما ضعفت في هذا الزمان تكريت ، وازدادت رعية نينوي وقويت اراد هذا المفريان ان يوحد رعية نينوي وتكريت ، وان لايضع مطرانا لنينوى ، فوقع خلاف بين المفريان وبين اهل تكريت ، ولذلك اتى اغناطيوس المفريان الى اثناسيوس البطريرك في قلعة زياد ، لكنه وجد ان البطريرك لم يرض بهذا الاقتراح ، فتركه وانتقل الى ملطية ، ومن هناك ذهب الى دير سرجيسيه ولما صعد البطريرك من قلعة زياد الى دير مار برصوم ، اتى ايضا المفريان وحاول ان يقنع البطريرك ان يصنع اتحادا بين الموصل وتكريت ويصير المفريان راعيا للاثنين، وبقي المفريان

جالسا في الدير كل الصيف دون ان يستقبله البطريرك ، وعند ذلك تركه في تشرين الثاني ومضى الى رعيته ، وبقي يكافح لانجاز هذا المشروع حتى حان الوقت المناسب ، واستطاع ان يحقق مايريد كما سنوضح ذلك فيما بعد .

اما البطريرك فأمضى في ديرنا - اي دير سيدنا مار برصوم - بقية حياته .

تنصيب اثناسيوس بطريركا

بقيت بيعتنا نحن المستقيمي المجد بدون رئيس عام مدة سنة وثلاثة اشهر ، وكانت خلال هذه الفترة تتم المراسلات لعقد مجمع وانتخاب بطريرك ، فقام من المطارنة المشايخ مطران كركر ، ومطران صمحا ، ومطران قلوذيه ، ومطران جيحان الذي انتقل الى ملطية،واجتمع هؤلاء الاربعة وحدهم ، وصنعوا قرعة كما قالوا ، وكتبوا اسماء ثلاثة كالعادة ، وفاز الربان يشوع الشماس ، فارسلوا اسقفين في طلبه ، فأما هو فخالفهم بالاسرار المقدسة ، فاثبتوا له ان اسمه كان بالقرعة ، وحينئذ مضى معهم الى دير المقرونة فالبسوه اسكيم الرهبنة ، واتاهم خبر ان المفريان وصل الى نواحي امد ، وان حاكمها يريدهم ان يجتمعوا في المدينة ، ولما وصلوا الى دير قانقرت رسمه مطران كركر قسيسا ، ثم صارت رسامته في امد يوم الاحد ٤ كانون الاول في عيد القديسة بربارة ، ووضع عليه يده ديونسيوس وكان معه من المطارنة والاساقفة اثني عشر وجمع غفير من الرهبان والقساوسة والشمامسه ، ودعي مار اثناسيوس بطريرك انطاكية ، وفي يوم رسامته اقام والي المدينة وليمة لكل المجتمعين ، وكان بينهم مؤيد الدين بن نيسان الرجل العربي ، ويعقوب الرجل المسيحي اخو اسحق الشماس الذي كان قد تخاصم قبل مدة مع اثناسيوس البطريرك وكان هو الان يصرف بكل سخاء على هذا المجمع ، وبعد ذلك بيوم امر البطريرك ان يخرج

مطران جيحان من ملطية ويمضي الى رعيته وان يخرج باسيليوس من امد ، واعطاه قلعة جعبر لكي تبقى امد كرسيا للبطريرك كما كانت في الماضي ، ومن ههنا تسرب الشك الردىء الى بيعة الله فقام باسيليوس ومطران جيجان وقالا للبطريرك : انك لم تضبط بطريركا بانتخاب صادق بل بالحزن والالم ، وقالا : ان مطران جرجر غش ، لانه قال له بانه لن يخرجه من ملطية ، ولأجل هذا كتب ثلاثة اوراق باسم واحد .

ولما انتشر هذا الخبر بين الناس تشككوا ، كذلك تشكك المطارنة الذين في بلاد غربي الفرات فاستعدوا ليقيموا اخر غيره ، وكان اخرون يقولون لانه طرد باسيليوس مطران جيجان كذب الانتخاب ، وكادوا يحرموه لاجل الشكوك التي زرعتها ، امّا هو فتوجه الى ملطية ، وجمع القساوسة والشعب واظهر لهم الاوراق التي كتبها ومضى الى جيجان .

ثم خرج البطريرك من امد واتى دير مار برصوم ورسم مطرانا لملطية ابن اخته تاودورس الذي دعي اغناطيوس .

وفي يوم احد العنصرة في تلك السنة في تشرين الاول سنة ١٤٥١ رسم للقدس روانوس الذي من دير القدس ، وكان ميلاده في ملطية وهو ايضا دعي اغناطيوس .

وفي سنة ١٤٥٢ اجتمع مطارنة المغرب مع ابني اندراوس وابن السمنة والباقي في حصن منصور ، وهناك كتبوا صحيفة القوانين وارسلوها الى البطريرك قائلين : ان تحفظ هذه القوانين يقبلوك ، عند ذلك وعد ان يحفظها ، ثم اتوا اليه في دير مار برصوم ووضعوا تواقيعهم برضاهم في المنشور وصار الصلح .

لما وصلت رسالة الحرمان التي صنعها مطران جيحان الى ملطية ، وقرئت على المنبر تقدم الربان يشوع الشماس العنيف واخذها ووضعها على راسه ، فلما سمع البطريرك فرح لاتضاعه

وذكائه ، وفي ذلك الوقت كتب له صلوات التجنل ، وبقي أمر ملطية حتى توفي يوحنا البطريرك ، وكانت وفاته في ايلول سنة ١٤٤٨ في دير الدوائر ، وبه سجي جسده المقدس ، اما مطران جيحان الذي كان كتب كما قلنا من قبل فقد احتال ضد الناموس ، وكتب دستورا ثبته وختمه بختم البطريرك المتوفى ، موضحا انه بصفته البطريرك قد ثبت قبل موته ملطية لباسيليوس مطران جيحان ، وحينئذ دخل اليها بحماية الحكام ، ورسم بها قسيسين وشمامسة ولم يكن للبيعة بطريرك ، ولما صار هذا المذكور باسيليوس مطرانا كانت معه مرعيث جيحان ايضا فصار جميع مسيحيي بيعتنا واكثر الاساقفة متشبكك بسبب افعال هذا المطران

اما الذين لم يعرفوا كيف زوروا ختم البطريرك ، فكانوا يلومون البطريرك، اما الذين كانوا يدركون ويفهمون ماذا جرى ، كانوا يعذرون البطريرك المتوفى ، لكن الحزين كانوا يسوغون فعل مطران جيحان قائلين انه صنع ذلك بالغيرة الالهية ، ولاجل تثبيت اركان البيعة .

وفي سنة ١٤٤٣ توفي مار كيرلس بطريرك مصر ، وارتسم مار اياونيس ، وجلس البطريرك مار اثناسيوس فقد اتى الى ملطية ، والتقى بمحمد الملك ، وجلس بالمدينة في بيعه مار ماماس واقام مراسيم الصلاه في البيعة الكبيرة ، وحينئذ طلب الى دير مار اهرون (دير البطم) واعطى الحق لمطران ميافارقين ليدبر امد ، ولمطران طرسوس ليدبر انطاكية

وفي تلك السنة نزل ديونوسيوس المفريان الى بغداد يتداوى من مرض الم به ، وتوفي هناك،وقد احضر اهل تكريت جسده المقدس وسجي في بيعه تكريت.

وفي تلك السنة خنق العرب اسقف حمص وطردت الرعية اسقف عبدين ، واما اسقف الجزيرة فاشتراه السلطان بالذهب ، وتخاصم

اهل دمشق ورعيتها مع اسقفها ، ثم ذهبوا الى البطريرك فأصلح بين الجميع.

وفي سنة ١٤٥٤ في تشرين الأول ارتسم مفريان لتكريت هو عازر من دير سرجيسيه ، وكان أصله من قرية العبر ، وقد درس في ملطية وارتسم في دير مار اهرون ، ودعي اغناطيوس، وقد اشتهر هـذا في البيعة شهرة كبيرة .

وفي تلك السنة رجع اثناسيوس البطريرك الى ملطية ، وكان فيها لما ملكها دولت بـن غازي ، وحين زحـف ضـدها سـلطان مسعود ، وبعد هذا مضى اناس الى جوسلين الوالي وقـالوا له: إن هذا البطريرك صار بغير حق ، واما جوسلين فلأن البطريرك لم يأت اليه فقد أصدر أمرا ان لا يذكر اسمه في الكنائس في كل الأراضي التي يحكمها قطعا ، واحضر طيمثاوس مطران جـرجر الى سـميساط وسأله كيف صارت القرعه في سميساط ، لكن مطران جرجر لم يقل إن كان مطران جيحان صادقا ولم يبين ذلك هـو أو غيره مـن الذين تكلموا.

وخرج البطريرك من ملطية وذهب الى دير مار برصوم لما سمع ان جوسلين قد نقل باسيليوس اي ابـو الفـرج بـن السـمنة الى الرها ، ورسم لكيسوم ايليا الراهب المعلم الكفـؤ في جبلة ، والذي دعي اياونيس ، وهو مشهور في البيعة.

استيلاء الفرنجة على عسقلان من المصريين

في هذا الزمان أصدر الأمير حاكم قيسارية الكبدوكية أمرا بتخريب البيع.

في سنة ١٤٦٤ يونانية (٥٤٧ هـ / ١١٥٣ م) كان بلدوين الافرنجي ملك القدس طفلا صغيرا ، وكانت أمه تحكم بالوصاية عنه وكأنها الملكة ، فلما بلغ بلدوين سن الرشد وأراد أن يملك فعلا تمردت أمه وتحصنت في برج داود ، فتوسط أعيان الافرنج ، فأعطوا لابنها قياده الجيش وحكم جميع المدن بينما اعطوها القدس فقط.

عندئذ توجه الى عسقلان وكانت تحت حكم العرب المصريين ، واقام المنجنيقات وأحدث فجوه دخل منها أربعمائة من الداوية. فهاجمهم العرب وكانوا يفوقونهم بالعدد ، إذ كان عددهم عشرين الفا وقتلوهم عن بكره أبيهم.

فيئس الملك وأراد أن يترك المدينة ، لكن شجعه من حوله ولم يتركوا العرب يسدوا الفجوه ، وفي الصباح حمل الملك صليبا ، وتوجه نحو المدينة صارخا من لم يتبعني لن يكون مسيحيا بعد الآن ، فهجموا على المدينة وقتلوا خمسة عشر الفا من العرب ، وعند ذلك ركب ما تبقى من العرب السفن وانهزموا الى مصر.

....(٣٩)قد صف المنجنيقات ونصب برجا من الخشب وصفحه بالحديد ، ولم يتوقفوا كل النهار وقد هلك عليها شعب كثير ، وكان فيها أمير تركي ، لكن عنده وزير يدعى ابن نيسان ، وكان كل شيء بيديه حتى الأمير جمال الدين الشيخ الوديع كان يطيع ابن نيسان ، الذي كان يعطيه خبزا ليأكل ، قد استطاع هذا الوزير بدهائه وذكائه

أن يتغلب على الجيش الجرار الذي كان يحاصر المدينة ، وكان يشجع من بداخل المدينة بالكلام المعسول والمواعيد الخادعة والعطايا الكثيرة ليدافعوا عن السور ، ويستميتوا بمحاربة الأعداء وكان يضع من الداخل جنودا أقوياء يلقون بالمقاليع والسهام على الجنود الذين كانوا يحاصرون المدينة.

واقام مقابل المنجنيقات الخارجية منجنيقات أعظم منها وأقوى وأضخم ، وقد أرسل ليلا ثلاث مرات دوريات تنقض على المحاصرين وتهرب ، أما الأبراج فكانوا يهدمونها بضربها بالحجارة الضخمة في الوقت الذي كان يدعم الأسوار من الداخل بالأعمدة الرخامية الكبيرة والمدعومة بالكلس.

لكنه على الرغم من هذه المقاومة الشرسة ، كانت رسله تقابل كل واحد من الأمراء في الخارج ، وكان يهدف من وراء هذه الاتصالات السرية أن يؤجج نار العداء بينهم ، ويعمل على انشقاقهم ، وأخيرا استطاع أن يكسب واحدا منهم الى صفه وهو يعقوب ارسلان حاكم كبدوكية ، وكان حمو قرا أرسلان ، ولكن لما وصله الرسل والرسائل من امد ، ورأى التعهدات وما يتبعها من قسم عظيم ، ثم الطاعة العمياء التي كانوا يقدمونها له ، ثقل على قرا ارسلان ، واراد ان يخلص امد من يديه ، لينتقم منه على الذي صنعه معه في ملطية ، فعندما دخل الى بلاده اخذ يسبي وينهب ، وترك قرا أرسلان الأمير وانتقل كسير القلب بعد أن تعذب خمسة أشهر ، وصرف نفقات كبيرة ، ولما وصل الى بلاده وقلعته دعاه يعقوب ارسلان للصلح ، فلم يرض وسبى كيزان وقورس وتل بطريق ، واخذ قلعة شوموشكي بالحرب ، وسبى مائه الف نسمة ، وساقهم رجالا ونساء وبهائم ، وترك القرى خالية خربة واخذ في جملة من سبى البار اغناطيوس اسقف تل ارسيانوس فأعاده من قماح الى ملطية ، كذلك اخذ ايضا مطران حصن زياد لكنهم تركوه بعد يومين

في سنة ١٤٧٦ يونانية صارت قلة بالحنطة في كل مكان ، وخاصة

في نواحي انطاكية وقيليقيه ، وصار نصف الكيل من الحنطة يباع بدينار ، واخيرا فقدت الحنطة تماما.

وفي تلك السنة قتل جمال الدين الوزير الذي كان في الموصل ، وقد ذكرنا انفا انه ارسل المفريان الى ملك الكرج ، لكنه كان فارسيا ، وكان قد اقامه اتابك زنكي مدبرا في الموصل ، وكان يعطيه من كل دخوله ، وقد غني جدا وعظم كثيرا.

هروب أمير ملطية مع زانية

وفي تلك السنة ١٤٨١ يونانية (١١٧٠ م) كان أمير ملطية محمد ما يزال صبيا ولا يستطيع التمييز بين الخير والشر ، فسقط في بؤره الفجور والجنس ، وتبع زانيه ساحرة ، وكانت هذه تدفعه مستعمله كل شرورها ليضطهد أهل المدينة ، وجنده الأتراك ، لذلك أخذ العظماء يتململون ويدمدمون قائلين الى متى نحتمل مثل هذه الأمور.

أما هو فزاد على سوء تدابيره ، وحسب كل شيء وجده في خزائن أبويه ملكا له ، فأخذه وأخذ معه تلك الزانية واتباعه وخرج من المدينة ، وأما رؤساء العساكر والجنود وأهل المدينة فإنهم لما نظروا إلى ما قد انتهى اليه محمد الأمير الشقي،أسرعوا فأقاموا أخاه أبا القاسم رئيسا ، وقد اصطلحت المدينة على أيامه ، وبقي ذلك يتجول من بيت الى بيت ، أما أخرته فسوف نوضحها فيما بعد.

... (٤٠) الذهب الذي كانوا قد تعودوا أن يعطوه منذ زمن ، وقد سلموا رهائن لكي يضطروا أن يدفعوا في كل سنة الذهب ، ولما أخذ الرهائن رجع الى القدس وبقي اليونانيون في حالة من التعاسة ثم أتى الشتاء ليهلك العديد منهم ، وبعد صعوبة بالغة استطاع أن يرجع قليل منهم الى بلادهم .

إضطهاد مليح الأرمني للمسيحيين

ولما سمع في سنة ١٤٨١ ملك القدس أن مليحا الأرمني حاكم قليقية يضطهد المسيحيين بكل الوسائل ويلحق بهم الشرور في كل مكان ، خرج ملك القدس ضده ، وزحف نحوه فاحتمى ذاك بالترك الذين أتوا

لمعونته ، ونشبت حرب ، فالرب بمعونته اعان الملك وكسرهم ،وهرب الأتراك ، أما مليح فدخل الى قلعته ، ولما حل الملك على القلعة ، وبدأ يقاتل تضايق مليح ، وندم وطلب الغفران ، ووعد أنه سيصير تحت طاعة الملك.

وفي تلك السنة مات عز الدولة حاكم قلعة أكل(٤١) ، وقام ابنه اسد الدين ، ونشب بينه وبين عمه حاكم أمد خصام ، وصارا يسبيان الفلاحين والقرى ويبيعانهم للعبودية.

زلازل عنيفة

في يوم الاثنين في ٢٩ حزيران حدثت زلزله قوية ، وكانت الأرض تهتز كما تهتز السفينة في البحر الهائج ، وانتشر الخوف والهلع والذعر بين الناس.

وقد حدث عندما كنا واقفين في هيكل دير مار حنانيا نتلو صلاة الصبح يوم عيد القديسين بطرس وبولس أن سمعنا بغته صوت رعد قوي ، وسقطنا على وجوهنا أمام المائدة المقدسة وتشبثنا بها ، ونحن نميل هنا وهناك وبعد مده طويلة أفقنا كمن يفيق من القبر، وتنبهنا انتباه من ينهض من رقاد ، وتدحرجت الدموع من عيوننا لا سيما لما سمعنا وتحققنا أن ما حدث لم يكن في الدير فقط وإنما عم البلاد كلها ، وقد صارت فظائع عمت البلاد والقرى،وعندما علمنا ذلك أطلقنا الألسنة بالشكر والتسبيح لله تعالى الذي أشفق علينا نحن غير المستحقين.

في هذه الزلزلة سقطت مدينة حلب وصار بها خراب كالخراب الذي حل على سدوم وعمورة ، وقد نظرنا بأعيننا الظلم الفظيع الذي كان يحل فيها على الأسرى المسيحيين ، فقد كان فيها الوف ، وكانوا يأتون بهم يوم الأحد الى البيعة والحديد بأرجلهم واعناقهم ، وكان صراخهم يتعالى ليشق عنان السماء ولا يستطيع

اللسان أن يتكلم عن الآلام التي كانوا يقاسونها ، وإذا أردنا أن نروي عن ذلك فاننا نحتاج الى أوراق كثيرة ، وقد جدف كثيرون على الله عندما نظروا وسمعوا عما يحدث ، وقد تهدم في حلب سورها ودورها وانتن الفضاء وتلوثت المياه من الجثث ، وتشققت المدينة وصارت شقوق وسراديب سراديب ، وصارت كلها تلا واحدا خرابا ، ولم يصر بغيرها كل هذه الفظائع ، كذلك سقط سور انطاكية على شاطىء البحر وبيعه اليونانيين الكبيرة كلها سقطت، وبيعه مار بطرس الكبيرة سقط مذبحها وبعض البيوت وسقطت بعض البيع في عدة اماكن ، ومات نحو خمسين من الناس في انطاكية،اما جبلة فقد سقطت كلها ، وفي طرابلس سقط قسم كبير منها بما فيها البيعة الكبيرة ،واحدثت الزلزلة اضرارا في باقي مدن ساحل البحر وفي دمشق وفي حمص وحماة ، وفي القرى ، لكن الشيء الذي صار في حلب لم يكن له شبيها قط ، ولم نسمع به في اي مكان .

وفاة أمير ملطية

وفي هذا الشهر كان عمر امير ملطية خمس عشرة سنة فقط ـ هذا الذي ترك أخوه المدينة بطريقة مهينة ومذلة كما اشرنا من قبل ـ فأحضروا له ابنة قرا ارسلان حاكم قلعة زياد زوجة ، وبينما كانوا يحتفلون بالعرس ، خرج العريس يرقص على ظهر الخيل حسب عاده الاتراك ، لكن الحصان قفز عاليا فجأة ، فانقلب سرجه وطرح الأمير ارضا ومات للحال ، فانقلب العرس الى مأتم ، وفكر الناس أن يعيدوا أخاه الأكبر والذي كان قد طرد ، لكن الترك رفضوا ذلك ، كذلك أجتمع المسيحيون ورفضوا ذلك فأقاموا عند ذلك الأخ الأصغر رئيسا وكان اسمه فريدون وزوجوه امراه أخيه بدون رضاها.

. . (٤٢) أما حاكمها فرينز فقد قص شعره ، ولبس المسوح ، وجمع

الشعب وصعد الى القصير وطلب الغفران من بطريركهم ، وتوسل إليه ليدخل المدينة لكنه رفض أن يدخل حتى يخرج البطريرك اليوناني ، فلما ذهبوا وجدوا ذاك مهشما بالزلزلة فحملوه وكان به بعد رمق من الحياة ، فأخرجوه من المدينة لكنه مات في الطريق،حينئذ دخل همفري إلى انطاكية وبنى أسوارها وبيعها ، وكذلك بنى نور الدين حاكم حلب أسوارها ،وحاكم سميساط بنى أسوارها ، وكل واحد من الحكام الأتراك والافرنج بنى أماكنه ، وقد أشفق الرب على شعبنا الموزع في كل المدن والذي لم يعد له ملك أو حاكم منه ٠

وفي حلب سقطت المدينة لكن بيعتنا حفظت ولم يسقط منها حجر واحد ، وهكذا أيضا بيعه مار برصوما ، وفي جبلة حفظت بيعتنا ، وفي انطاكية حفظت بيعنا الثلاث ، وهن بيعة والدة الرب ، وبيعة مار جرجس ،وبيعة ماربرصوما،وفي طرابلس وفي اللاذقية ، وذلك حفاظا على شعبنا المستقيم المجد ٠

حملة نور الدين على الموصل

عندما وصل نور الدين الى محيط الموصل ونصب خيامه هناك ، كان فيها أولاد اخوته الخمسة،وكان القيم عليهم ومدبرهم خصي كانوا يسمونه فخر الدين عبد المسيح ، اصله اسير من انطاكية ، وكان يساعد المسيحيين سرا مثلما كان مردخاي يساعد ابناء شعبه ، وكان يبغضه العرب حسدا ، مثلما كان هامان يبغض مردخاي.

أما نور الدين فقد قال : لأجل هذا اتيت الى الموصل ، أما عبد المسيح فكان يسوس المدن بالحكمة والدهاء ، لكن عندما وجد ان العرب بأجمعهم يحبذون نور الدين ويريدونه خرج اليه وأخذ عهدا منه أن لا يأخذ المدينة من ابن اخيه سيف الدين ، فوعده بذلك ، حينئذ دخل نور الدين وصعد الى القلعة ووضع بها شحنة يدبر امورها ، وهو خصي اسمه سعد الدين ، ثم ترك المدينة والبلاد تحت إمرة ابن اخيه • أما الذهب والمقتنى الذي وجده في خزائن اخيه فقد وزعه على جميع ابنائه ، كذلك وزع البلاد على الأخوه.

أما في بلاد ماردين وكل مكان توجد فيه قلعه فقد اتبعها به ، ووضع عليها واليا من قبله.

واثقل نور الدين كثيرا على المسيحيين فزاد عليهم الخراج ، وسن قانونا منعهم بموجبه أن يربطوا احزمه في وسطهم ، أو أن يسدلوا شعر رؤوسهم ليهزأ بهم العرب ، كذلك أمران يضع اليهود رقعه حمراء على اكتافهم لكي يعرفوا.

وفي هذا الزمان مضى عموري ملك القدس الى القسطنطينية ، وقابل ملك اليونانين فأعطاه ذهبا كثيرا ، وسلاحا ، ولما سمع نور الدين قفل راجعا بسرعة ومعه عاد عبد المسيح كي لا يبقى ويصير

عونا للمسيحيين ،ولما ارتحل ناحية حلب نشب صراع بين المسيحيين الموجودين في أثور وبين مسيحيي ما بين النهرين ، وقد حدث ذلك في شهر أيار سنة ١٤٨٣ يونانية ٠

وكما سلف وتكلمنا عن نور الدين ، لقد أسكره المجد والقوة والسلطان حتى بدأ يحسبه بعض العرب نبي ، وقد حاول نور الدين بشتى السبل أن يذل المسيحيين لكي يظهر أمام المسلمين انه يحافظ على الشريعة ، ويسهر على تطبيقها ، وقد استطاع أن يملك بلاد اشور بالاضافة الى سورية ومصر ، فأسكره الغرور ، واعتقد ان باستطاعته أن يتسلط على كل المسكونة ، فحاول أن يمحي المسحيين من الوجود ، فقام وكتب رسائل الى الخليفة ، وارسل رسلا بهذا الشأن الى الخليفة في بغداد يردد القول الوارد في القران: أن النبي محمد قد تنبأ أن المسلمين سيملكون خمسمائة سنة لا يؤذون المسيحيين بها ، أما الأن وقد كملت هذه السنين فيجب أن يباد المسيحيون من كل البلاد الواقعة تحت حكم المسلمين ، وكل من لا يعلن إسلامه يجب أن يقتل ، وقد كتب في إحدى رسائله الى الخليفة أنه مستعد أن يأتي اليه ، فارتاب الخليفة وعرف أن نور الدين يريد من كل ذلك أن يأتي اليه ليخلعه كما خلع خليفة مصر وجلس مكانه ، أضف الى ذلك فقد كان الخليفة يحتقره لأنه يسمي نفسه نبي.(٤٣)

في سنة ١٤٨٢ يونانية (١١٧١ م) في شهر آب توفي أتابك قطب الدين حاكم الموصل وكل اثور ، وحينئذ جمع أخوه نور الدين حاكم حلب عسكرا ونهض بسرعة ، وأخذ نصيبين بغير قتال ، ففرح فقهاء العرب لأنه كان يكرمهم جدا لأنه كان مؤمنا متدينا لا يشرب خمرا ، ويؤدي كل فروض الصلوات ، وكان المسلمون يسمونه « نبيا » ، وقد أحسن الى العرب ، وغضب على المسيحيين ،وأمر أن يهدم كل بناء جديد في البيع والأديره ، فهدموا اساسا عظيما كان قد بني في بيعه مار يعقوب الكبيرة في نصيبين التي كان يتولاها الذساطره من زمان برصوما المهراطق ، ونهبوا اوانيها ، وكان بها

الوف من الكتب ، وقد صنعوا الشيء نفسه في أماكن كثيره ، وقد اقام فقيها يبغض المسيحيين من سلالته يدعى ابن عصرون ، ووكله أن يتجول ويهدم كل بنيان جديد يوجد في البيعة التي قد بنيت في أيام أبيه وأخيه ، لكن ذلك القاسي الذي أرسله كانوا يرشونه ، فكان يحلف على الموضع الجديد أنه بنيان عتيق ، وعندما كان لا يجد من يرشيه ويدفع له كان يهدم ويخرب ، الى أن سمع بهذا نور الدين فأقاله.

وبعد ذلك حل نور الدين على نصيبين ، ووصل الى جبل سنجار واحتله بغير حرب ثم حل على الموصل في كانون الأول سنة ١٤٨٢ يونانية.

وفاة الخليفة المستنجد

وفي تلك السنة تـوفي الخليفـة المسـتنجد ، وخلفـه ابنه المدعو المستضيء ، وقد أوقف الخليفة الجديد اضطهاد المسيحيين لأسباب سوف نوضحها فيما بعد.

قصة جر المياه الى دير القديس برصوما

كان المسلمون الترك والأكراد وشعوب مـن أهـل السـنة اخرى ، تجتمع وتأتي لتزور دير القـديس مـار بـرصوما ، في كل وقت ، خصوصا في عيده ، لأنه كان يتفقـد كثيرين بنعمتـه ، وكان يبرئهم ، لذلك كان يتجمـع الناس اليه مـن بعيد ، وكانوا يبقـون شهرا ، لذلك كانوا يجلبون الماء على ظهور البغـال ، لكن مـطران ماردين الذي سكن الدير من قبل ، كان يعرف طريقا قصـيرا لجلب الماء ، فكان يأتي به بسهولة ، لذلك أراد هـذا المطـران أن يصـنع خزانا بهـذا الموضـع المقـدس ، ويجـر الماء للدير بقنوات ، لكن الرهبان رفضوا وقالوا: لا يمكننا ونحن محاصرين بالاتراك مـن كل ناحيه أن نقوم بهذا العمل العظيم ، لكن في الحقيقة لم يصـدقوا انه يمكن ان تمر اقنية عبر هذا الجبل الوعر المسالك والمليء بـالصخور والأحجـار ، وقـد قـالوا له:إن الأولين كانوا أحـكم منا وأعرف بأضعاف ، ولم يقدروا أن يصنعوا هذا ، فكيف نحـن إذا؟! وبعـد فتره دعيت انا الحقير ميخائيل ، واقاموا راعيا للدير فـدفعني الرب الموضح قوته بالضعفاء أكثر من الأقوياء ان اكتب للمطران ماريوحنا عن ذلك ، فأتى ببشاشة وزار المكان وقدر انه يمكن أن يدخـل الماء للدير ، حينئذ بدانا العمل بحفر الأرض واستقدام اللوازم ، ثم اتى الشتاء فعاد المطران الى رعيته ، ليعود في نيسان.

وفي هذه الفترة بدا الاخوه الرهبان والشيوخ والصبيان يصرخون

ويولولون بدافع الحسد قائلين: لقد خرب هذ الدير وضاعت امواله ، لكنني صمدت بمعونه سيدنا مار برصوم ، حتى دنا الربيع ، واتى المطران كما وعد ، حينئذ عوض الجسد الذي كنا نلقاه من المحيطين بنا صار معونات ومديحا من المسيحيين والمسلمين ، وعند ذلك تشجع الرهبان وابتداوا برضاهم يعملون بقوة سيدنا مار برصوم ، فكانوا يتسابقون ليكون كل واحد اولا ، وخصوصا كانت تظهر علامات تشير أن القديس يريد أن يتم هذا العمل ، وقد تراءى القديس لبعض الرهبان والمبتدأين الذين كانوا ضد اكمال هذ العمل ، وهو يحمل عصا ويشير بها قائلا : الى هنا اريد ان اتي بالماء ، وهذا ما صار فعلا لأنهم بينما كانوا يحفرون في الصخور ، وقعت صخره عظيمه جدا فوق رجل ، وكان اسمه برصوم فبدل ان تسحقه عاد واقفا ، وهذه كلنا نظرناها بعيوننا ولمسناها بأيدينا.

واعجوبه أخرى ايضا صارت عند انتهاء العمل ينبغي لي أن اكتبها عندما اقترب الماء من باب الدير ، وكان الصخر عاليا وقفنا في حيره ، لكن ما لبث أن تراءى القديس لراهب غريب ، وقال له:امض وقل للفعله ولراعي الدير : في المكان الفلاني تجدون مسلكا للماء ، فلما قال هذا لم يصدقه أحد لأن كل الجبل كان في ذلك المكان كله صخر صلب ، فأخذ الراهب وحده يحفر حيث دله القديس ، فوجد الجبل مشقوقا نحو خمسمائه قدم ، فتعجب جميع الناس ، ومجدوا الله ، وقال بعضهم: إن الثقب قديم ، لكن آخرون قالوا:إن الرب شقه من جديد ، فأما أنا أقول : إن كان في الأصل هو مشقوق او أنه انشق الآن فقوة الله الحالة بسيدنا مار برصوم أوضحت لنا انه هو صنع هذا الفعل وليس نحن ، أما انا الشقي الذي رويت باقي الأمور التي جمعتها في هذا الكتاب لاأحد يظن بي أني كتبت شيئا غير صحيح بل قد تركت اشياء كثيرة لئلا تطول الرواية ، فليعلم القارىء أنه في سنة ١٤٧٤ يونانية في ٢٤ آب كمل هذا العمل •

تمت هذه القصة .

. . . . (٤٤)وبلادها ، وأخذ الدار التي لبيعتنا في ماردين وأعطاها للعرب ، فأضافوها الى مسجدهم ، وقد سبب هذا كآبة لنا ولكل الشعب ، حينئذ أخذ بعض المكفوفين يجدفون على القديسيين بدل أن يوبخوا أنفسهم .

إن الله سمح بذلك لأجل خطايانا ،وصار الشعب يعيرنا نحن الكهنة ، ويتجاسر على القديسين ، بل من الواجب أن يقول القديسون لنا :إن الشعوب تفتري على اسم الله لأجلكم.

وفي الحقيقة الويل للعبد الذي يحتقر اسم سيده من أجله ، وبعد ذلك سقط ذلك الخصي عن حصانه وندم ، لكنه لم يستطع أن يرد الدار لأنه خاف من العرب.

وفي السنة التي مات بها مطران سميساط مات ايضا يوسف الذي كان موضوعا بغير شريعة في تل ارسانيوس وانعتق منه المؤمنون الذين كانوا هناك ، لأنهم كانوا يشكون به كثيرا.

وفي هذه السنة ارتسم ابراهيم وكيل ديونسيوس ، وفي تلك السنة حفرنا في دير ماربرصوما وبنينا مساكن للبطاركة ولراحة القاصدين ، وفي تلك السنة تجددت بيعة ملطية الكبيرة المدعوه الساعي ، وكانت قبتها قد تداعت على مر الزمن ، وشارفت على السقوط ، وقد حاول المؤمنون أن يرمموها ، لكن الرعاة لم يسمحوا لهم مدعين الخوف من الحكام ، لكن الصحيح كانوا يخافون اذا بدأوا بالاصلاح أن لايستطيعوا أن يكملوه لأسباب تعود اليهم ، وليس للحكام كما يدعون ، لذلك اهملت الى الآن ، وقد اخبر بعض المؤمنين بطريرك انطاكية بتشقق بنيان الكنيسة ، فأرسل الينا اسقف طرسوس وقسيسا من عنده وطلبا مني أن امضي معهما الى الكنيسة لأجل هذا الأمر ، ولما مضينا وشاهدا الجدران المتداعية أعطوني خمسين دينارا لأبدأ العمل ، فأحضرت العمال حيث هدموا القبة والبابين القبلي

والشمالي ، وابتداو بالبنيان ، لكن اقترح اثنان من مساعدي همـا ابو الحسن الارشيد ياقون(٤٥) ، ورومانوس الوكيل المتكني كوجان بهـدم البنيان كله ثـم اعادة بنائه ، وهـكذا كان ، فهـدمت الكنيسة ، ثـم أعيد بناؤهـا رويدا رويدا ، وقـد اشـتركت المدينة كلها ، فكانت التبرعات تأتي من الأرامل والمساكين بمقتنياتهـم سرا الى رومانوس الوكيل .

وكان أول بناء لهـذه الكنيسـة عام ١٤٨٠ يونانية بـرعاية ماراغناطيوس المطران المدعو الساعي .

أما هذا التجديد فقد بدأ عام ١٤٨٣ يونانية وطال ستة سـنوات وتكمل في سنة ١٤٨٨ وانفق عليه الفي دينار .

وفي هذا الزمان سقط أناس من الأفـرنج ، كانوا في تلك الأرض مشهورين بالرحمة على الفقراء والمحتاجين ، بتأثير الشـياطين في الهرطقة فكانوا يقولون انه لايمكن للخبز والنبيذ ان يصـيرا جسـد الرب ودمه ، وانه لافضيلة سوى الصدقات والرحمة على المحتاجين ومحبة الناس واتفاقهم مع بعضهم ، وقد تبعهم كثيرون حتى صاروا الوفا وربوات ، وصار لهم أساقفة وولاة ، واتحـد معهـم حـكام البلاد ، ثم زادوا على ناموسهم نوع كريه مـن الدعارة اذ اشـاعوا نساءهم للجميع ، وبذلك لم يعد للرجل امراة واحـدة ، ولا للمـراة رجل واحد ، ولماانتشر هذا النفاق قام بـابا رومية فجمـع مجمعـا مسكونيا ، وامر بايقافه وكانوا يسمون البابا افوسطوموس،واما نحن فوضحنا بطرق متعددة ان لامكان لنا في هذا المجمع ولانريد ان نمضي الى تلك الناحية ، وقد كتبنا صحيفة كبيرة واوضحنا بها كيف ومتى اوجد الشيطان مثل هذه الأمور .

الخليفة المستضيء بأمر الله

بعد ان توفي الخليفة المستنجد بالله ، خلفه ابنه المستضيء بـالله وقتل هذا الخليفة الوزير لأنه لم يرض به مـكان ابيه ، وكان هـذا الوزير القتيل يكره المسيحيين جدا ، ولذلك اخذ الخليفة الجديد يحب المسيحيين ربما ، بسبب حقـده على الوزير ، فـأخرج رؤسـاءهم المؤمنين أولاد توما من السـجن ، وأعاد لهـم بيوتهـم وبيعهـم واعتبارهم ، فأعلموه كيف احتقر والده الخليفة السالف رسـل نور الدين لأنه اكتشف حيلتـه ، وانه أرسـل له تـأنيبا يعنفـه فيه ويقول : لايجوز لك ان تسمي نفسـك نبيا ، وتضـع نواميس كالاله لأنك لم تفهم كلمة النبي محمد حول السنين ، وان الله لم يأمـر ان تقتل الناس بغير ذنب ، وحينئذ خزي وكف عما كان يقوم به .

وبعـد أن تـولى الخليفـة الجـديد طلب نور الدين الأذن للقدوم ، وزيارة قبر الخليفة المتوفى ، فتيقن الخليفة الجـديد ان نور الدين اختلق قضية المسيحيين ليأتـي بحجتهـا الى بغـداد ، ويملك ولذلك رد جوابه بتهديد شديد ، ومنعه من القدوم الى بغداد .

لذلك علينا أن نفهم أن الرب لم يتركنا من رحمته ، ولم يهملنا في أي زمن من الأزمان ، وهو دائما يحفظنا برحمته ، ويحفظ بيعتـه من كل مبغضينا

في سنة ١٤٨٣ يونانية سمع السلطان قليج ارسلان بـالانشقاق الذي حدث في ملطية بعد ان توفي الأمير الصغير إثر وقوعه عن صهوة جواده ، فاستعد للتوجه اليها ، لكن الناس سارعوا الى قلعـة زياد مستنجدين ، فأتى الخصي سعد الدين ، وهـو رجـل مـدبر حـكيم وشجاع ، فوحد كلمة العساكر وثبت خطبة ابنته سميدة على الأمير الصبي ، وصار الجميع كلمة واحدة ، فلما جاء السلطان لم يستطع ان يستولي على المدينة ، لكنه أخذ اثني عشر الفا مـن شـعب البلد

ومضى ، وقد حث نور الدين كافة الأحرار ليذهبوا مع عساكره وعسكر الموصل وماردين وقلعة زياد وعسكر الارمني وغيرهم كثيرون حيث تجمعوا عند اسماعيل في سبسطية .

لكن السلطان الذي بقيسارية كان يماطلهم ويعدهم بالغزو ، ثم يؤخر من وقت الى وقت حتى انقضى وقت الصيف ، ولما نظروا انه قد قرب الشتاء ، وعرفوا انه كان يخادعهم توجهوا الى الباب الرئيسي لقيسارية يريدون الخروج للغزو والسبي ، لكن السلطان لم يطاوعهم ولم يخرج معهم للحرب ، وحينئذ طلبوا منه ان يعطيهم مقتنياتهم وأموالهم التي كانوا قد غنموها في بلاد ملطية ، وكانوا في حالة من الغضب والهياج ، ثم اخذوا يجمعون اسلحتهم وثيابهم .

أما الشرزمة التي كانت مع صلاح الدين فقد وصلوا الى مصر ولبسوا السواد وبقوا في حالة من الحزن .

وفي هذه الأيام لما علم الوالي التركي المتسلط على قلعة الروم ان حاكم حلب يستعد لاعتقاله وقتله عصى وتمرد والتجأ الى الأفرنج فوعده فرينز ان يدعمه ويساعده للبقاء في القلعة ، ولما جعل نفسه عبدا للأفرنج عاداه الأتراك ، وصاروا ضده ، لكن الأفرنج اخلفوا عهودهم ومواثيقهم معه ، وداسوا على اليمين الذي اقسموه له ، فأتوا من القدس ومن كل ساحل البحر : كونت طرابلس ، ورافان حاكم قيليقية ووالي فلط ، ومضوا مع فرينز وكانوا جمعا كبيرا جدا ، وهاجموا حارم وحاصروها اربعة أشهر ، واخذوا يضايقون البر كله والمدينة ، وقد اوقعوا خسائر كبيرة ، وقتلوا عددا كبيرا من الخلق،لقد حلفوا بالصليب والانجيل كذبا ، وظنوا ان الغلبة تكون بقوة البشر ، ثم اخذوا يهاجمون القلعة كرا وفرا ، فضعف الترك الذين كانوا يدافعون عن القلعة وارسلوا يستنجدون بحاكم حلب ، واعطوه عهدا ان يسلموه القلعة ، اذا رد الفرنجة عنهم ، فأعطى حاكم حلب عشرين الف دينار الى فرينز حيث قفل راجعا الى انطاكية .

...(٤٦) وقد جمع البلاد التي اخذها من اخيه شاهنشاه والذي كان قد اخذها من ذي النون ، وكذلك اخذ اولاد اخيه الذين كانوا في السجن اما هو فأرجع شعب ملطية واعطى لأخيه كل سنة عشرة الاف دينار ، لكنه لم يعط مكانا لأحد قطعا .

اما عن اخباره مع أولاد اخيه فقد كان معهم متوحشا الى ابعد الحدود ، فذبح واحدا منهم وشواه بالنار ، ووضعه على طبق وارسله لابيه وارسل معه خبزا وارفقه برسالة تقول :إن كنت تريد ثلاثة اخرين مثل هذا فأنا على استعداد أن ارسلهم فورا لك ، فلما راى الترك هذا المنظر هلعوا وارتاعوا وتصالحوا ، وعاد كل واحد الى بلده لأنه كان قد دنا فصل الشتاء ، وكانت بلادهم خالية من العساكر .

ولما اذيع خبر موت نور الدين بين العرب والترك ثاروا على بعضهم ، ووقعت بينهم حروب شرسة اقتتلوا فيها كثيرا ، وسقط منهم الوف ، وقد خاف المسيحيون ان يفنوا بعضهم بعضا ، وقد خلت القرى من الرجال والطرقات من المارة في سورية ومابين النهرين واشور .

وفي تشرين رجع الأمراء والعساكر من كبدوكية الى بلادهم ، كذلك تعافى نور الدين من مرضه وظهر امام الناس فعرفت الشعوب انه حي ، فتبددوا وتفرقوا ، ثم اصطلحوا ، وخلال هذه المعارك التي صارت بين العرب والترك سبي من كيسوم نحو من الف شخص ، وقد اشتراهم أهل ملطية وتاجروا بهم وربحوا اموالا طائلة .

في سنة ١٤٨٤ يونانية قتل اسماعيل حاكم كبدوكية ، فالجوع الذي طال امره في كل البلاد ، والشتاء الصعب الذي اتلف كل شيء ضايق الناس كثيرا ، فتجمهروا وطلبوا منه قوتا بعد أن علموا انه يختزن الحنطة ويمنعها عنهم ، ثم اعطاهم قليلا وطردهم بل واخذ يهزأ بهم ، وحين تضايقوا من الجوع حاولوا ان يقتلوه ويأخذوا

الحنطة ليقتاتوا بها مع أولادهم ، فتحالفوا مع بعضهم ، وهجموا عليه وقتلوه هو وامرأته اخت السلطان مع خمسمائة من اذسبائه ، ورموهم على الثلج دون أن يدفنوهم ، ثم تسلطوا على كل الطعام الذي خزنه واكلوه ، أما أخبار مصرعه فلم تعلم حتى شهر شباط لأن الطرق كانت مقطوعة بسبب تراكم الثلوج ، واخيرا انتشر الخبر في كل مناطق حكمه ، لكن الثلج الكثيف شل حركة الناس ، فلم يستطع ان يتحرك اللصوص او قطاع الطرق ، إنما سرعان ماندم قاتلوه واتفقوا ان يقيموا مكانه احد اذسبائه ، فاتصلوا بعمه ذي النون ، الذي كان السلطان قد اطلق سراحه من قيسارية ، فسكن في دمشق ، والآن لما استدعي للسلطة اهتم به نور الدين ، أما ذي النون فقد اتى سيرا على الأقدام لأن الثلج كان قد غطى الطرقات ، وعندما وصل امام ديرنا خرج اهل الديروكسحوا الثلج أمامه ورافقوه مسيرة خمسة ايام ، الى ان وصل سبسطية ، وعندما تملك هناك احضروا له القتلة فقتلهم ، لكن بعد هذا ظهر نورالدين بعد ان ظن الجميع أنه قد مات وخرج للاقاة السلطان ، وكذلك الأمير قلج ارسلان في كيسوم ، وهو خال السلطان ، ولما عرف ان السلطان مغتاظ منه ترك وعاد الى كيسوم من خوفه ، ومضى الى نور الدين ، ولما ملك ذو النون في كبدوكية زحف ضده السلطان ، وحينئذ جمع نور الدين ، وجاء فأخذ كيسوم وقلاعها ومرعش ، ودخل الى بلاد جيحان ، ثم ترك السلطان سبسطية وأسرع ليحارب نور الدين ، وقد نصب القائدان خيامهما وجها لوجه في بلاد جيحان ، لكنهما كانا خائفان لأنهما كانا متعادلين بالقوة تقريبا ، واخيرا انتشر الجوع في كلا المعسكرين ، وفني منهم عدد كبير ، ولهذا السبب توسط المصلحون فيما بينهما فوافقا على الصلح ، فرد نور الدين كيسوم وكل المواضع التي اخذها من السلطان ، وبالمقابل سمح السلطان ان يملك ذي النون على كبدوكية ، وان يطيع نور الدين ، واصطلحا ، ورجع كل واحد إلى بلاده .

وأباد الثلج الذي انهمر بغزارة في هذا الزمان الناس والبهائم

والطيور ، وقد قرر الجميع ان هذه الضربة الثلجية التي اتت في شهر ايلول وتشرين واتلفت الغلال ، كانت غضبا من الله لأنهـا اتـت في غير اوانهـا ، وقـد التجـأ الناس الى التنجيم والضرب بـالفال ليكتشفوا سر ماجرى ، فقد لف الظلام الجو ، وصار نور الشـمس يظهر كنور القمر ، أمـا الثلج فـكان يتسـاقط بغـزارة عظيمة ، فامتلات الجبال والبقاع حتى ان الاقـوياء مـن الشـباب كانوا يذهبون من قرية لقرية بصعوبة عظيمـة ، بـل ومـن بيت الى بيت ، وهكذا امتلأت الأسواق والمدن والقرى بالثلج ، وكان الناس داخل بيوتهم وكأنهم في قبور ، وقد تجمـدت الأنهـار والعيون وكل الينابيع حتى ان الناس والبهائم والطيور كانوا يموتون من العطش كما يموتون من الجوع .

واي انسان يستطيع ان يصف الشدة التي حلت بهذا الزمان على كل مايعيش على الأرض من الحيوانات والطيور التي كانت تلتجيء الى البيوت ؟ أمـا الثيران والحمير والخيل فقـد مـاتت داخـل زرائبها ، بينما نفقت الأغنام والماعز تحت الثلج ، وانتن الجو مـن رائحة الجثث ، وهذه الكارثة لم تقتصر على بلاد الشمال فقـط بـل صار هذا في الهند ايضا .

وقد بقي الثلج يتساقط اربعة عشر شهرا وحيث لم يكن معتـادا ان يأتي قط ، أما القبائل العربية التي لم تتعود السـكنى في البيوت فقد غمر الثلج خيامها فبادوا ولم يبق من ينقل الأخبار من قبيلة الى اخرى ، وقد بقي الثلج يطمر كل شيء حتى شهر نيسـان وبصـعوبة كبيرة جدا عرف الناس الذين كانوا يسلكون في الطـرقات فـطمرهم الثلج ، وبقوا كل هذه الفترة تحته،أما الملوك والرؤساء فقد التجـأوا الى المنجمين الذين أخذوا يكذبون ويقولون ان هذه الشـدة سـوف تنتهي قريبا ولن تعود ، لأن الملوك هكذا يريدون ، ومثل هذا الكلام صدقه عدد كبير من الناس ولكن الله قد فضح كذبهم فصار في السنة التي بعدها ماكان قد صار نفسـه ، وامتـد مـن آذار الى نصـف حزيران ، فاعترف حينئذ الطالبون الذين يقرأون في عدد الكواكب ان

كل مايشاء الرب يصنع ، وقد كتبنا ذلك ليتعظ الناس ويعتصموا بالايمان .

وفي هذا الزمان سبى العرب بيعة الأربعين شهيدا في ماردين ، وقد سمح الله تعالى ان نعتبر بهذا ، لكن رجعت البيعة بعناية الله فيما بعد .

موت نور الدين

في عام ١٤٨٥ يونانية كان سلطان نور الدين يمتد من اشور وبين النهرين الى سورية ومصر ، وكانت كل هذه البلاد وكل امراء الامارات التي بها تخضع لأمره كالعبيد،فانتفخ غطرسة وجبروتا عندما خضع له ايضا الذين في كبدوكية وقيليقية،فتأهب في هذه السنة ليحتل المملكتين دفعه واحدة ، مملكة الأفرنج في القدس وانطاكية ، ومملكة الاتراك في بلاد حران ، وكان رسله يجوبون كل مكان ساعين في تجنيد الرجال لهذه الحرب حيث كانوا يجمعونهم في دمشق بعد ان يأتوا بهم من داخل بلاد العرب ، وبلاد اشور ومن بين النهرين وارمينية وكبدوكية وسورية وقيليقية ، وكانوا جموعا تفوق العدد والتصور، وعم الخوف والفزع والهلع كل مكان ، ولاسيما بين المؤمنين المظلومين ، لكن الرب المتسلط وحده على ممالك الأرض حكم فجأة على نور الدين وانتهت حياته وطموحاته وافكاره ، فعم الفرح ليس بين المسيحيين فقط بل وبين الأمراء الذين كانوا متضايقين جدا ، فقد منعهم أن يشربوا الخمر في معسكره ، وكذلك منع الغناء والرقص ، وكان يغلب على معسكره الطابع الديني ، فكان دائما يستمع الى القرآن والحديث ، لانه كان يعتبر نفسه نبيا،وكان يدعي ان الله يتكلم معه مثلما كان يتكلم مع موسى .

اما العرب فقد اعتبروا ان مايدعي به هذيانا وخروجا فاضحا على الدين ، غير أن بعض المرائين والمنتفعين كانوا يقولون له · لقد رايناك في مكة أو في المسجد الفلاني ، وكان يتقبل كلامهم بفرح وسرور

وملك نور الدين ثمانية وعشرين سنة ، وملك بعده ابنه الصالح في حلب ودمشق

الملك الصالح اسماعيل

بعد موت نور الدين ملك ابنه الملك الصالح فقام الملك عموري ودخل الى بلاد دمشق وسباها ودخل على بانياس ، وخاف المسلمون كثيرا خصوصا انهم كانوا يستعدون ليطردوا الأفرنج ، واذا بالأفرنج اتوا ليملكوا على بلادهم ، لذلك أرسل اهل دمشق رسلا لهذا الملك طالبين ان يؤدوا له الجزية،كما كانوا فيما سلف،لكن الملك رفض ذلك ولم يقبل ان يعقد معهم صلحا قط ، بل تهيأ ليشن الحرب عليهم لكنه مالبث ان مرض ، ولما علم ان اجله قد دنا اسرع واخذ الذهب من الدمشقيين وعقد معهم صلحا،ورجع الى عكا ومات هناك في أول تموز سنة ١٤٨٦ يونانية،اي بعد اربعين يوما من وفاة نور الدين .

وقد أحدث موته حزنا للمسيحيين الذين كانوا يأملون ان يعيشوا افضل بعد موت نور الدين ، فخاب املهم بالموت الأليم لهذا الملك الذي كان في بداية الشباب .

ملك عموري اثنتي عشرة سنة ، وقد خلفه ابنه المسمى بلدوين باسم عمه المتوفى وكان عمره خمس عشرة سنة،ولما ملك ثبت الصلح الذي كان قد عقده والده مع ابن نور الدين .

في صيف هذه السنة اي ١٤٨٦ يونانية لما سمع قلج ارسلان بوفاة نور الدين هاجم بلاد الدانشمدنيين فخافوا كثيرا وتم فيهم قول ارميا النبي :« ملعون هو كل من اتكل على الانسان وصنع ابن اللحم ساعده،ويبعد من الرب اتكاله فيكون مثل الجذر الذي ليس له ماء» واستطاع السلطان ان يتسلط عليهم ويقتلهم واخذ سبسطية ونوقيسارية وقومانا وباقي مدن كبدوكية وكل قلاعها ، وقد عظم السلطان قلج ارسلان هذا فهرب كل الأمراء من وجهه

واختبأوا ، أمـــا رئيســـهم ذو النون فقـــد التجـــأ الى القسطنطينية ، واستنجد بملك اليونان ، فلم يقبله ، وانتهت عند ذلك زعامة بني دانشمند التي ابتدات مع بداية خروج الأتراك لهذه البلاد ، والاستيلاء عليها من اليونانيين سنة ١٤٦٢ يونانية ، وقد ملكوا مائة واثنتين وعشرين سنة قام خلالها ستة رؤساء من سلالتهم .

وبهذا الزمان انتهت زعامة بني دانشمند في كبدوكية .

وبهذا الصيف ابتدأ ينبت العشب وحسنت الغلات بعد أن صار جوع عظيم لمدة أربع سنين في كل من سورية وفلسطين ، وفي أثور وارمينية وبلاد فارس ، ووصل الى سجستان ، وايضا وصل الى الهند الكبيرة ، فالآن قد بدل الرب القادر على الكل ، فصار شبع لاسيما في ارض مصر حيث كثرت الغلال وخصوصا الحنطة فصار حملان من الجمال بدينار واحد .

بعد موت نور الدين خرج ابن اخيه سيف الدين من الموصل،واخذ نصيبين،ونقض النواميس التي وضعها عمه ، وكسر الحجر التي كان قد كتب عليها النواميس ، وكانت موضوعة بالمسجد وامر بشرب الخمر علانية ، واتى اليه امراء ماردين وحصن كيفا ، كذلك مضى الى حران وملك عليها واخذ سروج وقالينيقوس ، وخضع له ابن عمه حاكم حلب ودمشق ثم رجع الى الموصل .

وفي تلك السنة ملك صلاح الدين الذي كان يملك بمصر ايضا على بلاد العرب الداخلية وعلى اماكن من ممالك النوبة ، ونجح نجاحا عظيما .

وفي هذه السنة قام الأرمن اصحاب جبل ساسون الذي كانوا يملكونه منذ عدة اجيال بالتخلي عن قلاعه الى شاه ارمن صاحب اخلاط،وذلك نتيجة لما تعرضوا له من ضغوط ومضايقات من أمير ميافارقين. وفي هذه السنة انتزع الأتراك من الفرس مدينة آني.

وفي سنة ١٤٨٦ يونانية في ١٥ كانون الأول قتل في قلعة ماردين الطواشي امين الدين مدبر البلاد ، وقد قتله الأمير قطب الدين ، واخذ راسه بيده ، ودخل على ابيه الشيخ وقال : لقد اراد ان يقتلني فقتلته ، فأما الشيخ ابوه فقد أصيب بصدمة شلت لسانه فلم يجب .

وفي تلك السنة عصت على مليح حاكم قيليقية عساكره لمعاملته السيئة النجسة ، وحاولوا قتله ، ولما أحس خرج من المعسكر ليلا وهرب الى احدى القلاع،لكن حراس تلك القلعة كانوا متعاطفين مع العساكر فأمسكوه وقطعوه عضوا عضوا ، وأعطوه للكلاب فأكلته ثم احضروا روفين ابن أخيه اسطفان من طرسوس ، وكان مختفيا هناك خوفا من عمه وملكوه عليهم ، حينئذ قتل الذين قتلوا عمه لأنهم رموه للكلاب .

وفي هذه السنة صار في بغداد تمرد على الخليفة المستضيء من عبده قطب الدين ، فجمع عسكرا وحاصره في داره طالبا منه ان ينصبه سلطانا،فلما تضايق الخليفة صعد الى سطح داره واخذ يصرخ باعلى صوته باكيا متضرعا مستنهضا همة الشعب الموجود داخل المدينة ليجتمعوا وينجوه من أيادي هذا المتمرد ، فاجتمع اليه الاف ، وبعد قتال عظيم هرب العبد ومعه ثلاثون الف فارس ، وتوجهوا الى البرية لينجوا فساروا خمسة أيام لم يجدوا فيها ماء ، فتضايقوا من العطش،فأرسلوا رسلا الى حاكم الموصل الذي وعد ان يصلح الأمر بينهم وبين الخليفة ، ولما توجهوا لكي يمضوا للموصل ادركتهم ريح حارة ومحرقة ، فيبسوا وصارت الناس والبهائم كالخشب الأسود حتى ان الحيوانات عافت ان تأكلهم لأن رؤوسهم متصلبة كالحجارة ، ثم استطاع ان يصل الى الموصل مائة رجل منهم ، لكن الأطباء لم يستطيعوا ان ينقذوا احدا منهم فماتوا جميعا وصاروا عبرة لمن اعتبر .

وفي سنة ١٤٨٦ يونانية ، يوم الأحد ١٥ شباط ، قتل امير

ملطية أخيه الذي كان قد ملك أولا ، ثم ترك الملك والمدينة وهرب بحالة من الذل ، وبقي متشردا خمس سنوات يعيش عيشة بذخ وفسق وفجور ، فأمسكه نور الدين وحبسه لكنه ما لبث أن هرب وأتى انطاكية وتبع الافرنج ، لكنه لم يجد هناك راحة فعاد وهرب من هناك ورجع إلى الترك ، وجاء إلى عند السلطان فأعطاه هرقلية ، وكان يريد ملطيه ، وعندما أصر على ذلك عاد فأخذ هرقلية منه ، فتوجه إلى الأتراك الذين في ناحية الشرق فأمسكه نور الدين وزجه بالسجن في مدينة البيرة على شاطىء الفرات ، وعاش هناك في ضيق حيث كان يقتات من الصدقة ، وقد تجاسر رهبان دير مار برصوم وارسلوا له صدقة مع رسل من الرهبان انفسهم،لانه عندما كان حاكما كان يحب الدير ويكرمه ، وقد استفاد الدير من هذا كما سنوضح القول فيما بعد .

ولما مات نور الدين خرج من السجن وسمع أن امراة أخيه تركت ملطية بسبب بغضها لبعلها ، ورجعت إلى قلعة زياد عند أبويها ، فتوجه إلى هناك حيث شجعه هؤلاء كثيرا ، فأخذ سرا ماخف حمله وتوجه إلى دير مار برصوم ونذر له نذورا كبيره إذا رجع وملك ملطيه ، واقسم ايضا أن يعتق الدير من الخراج ، وبعد ذلك توجه إلى المدينة بزي مسكين شحاذ وقت المساء ، ولم يعلم به إلا رجلين كانا معه فقط ، وقد أخذاه إلى أحد الأتراك وكان يحبه منذ زمن ، واختفى في بيته مدة يومين ، ثم خرج ليلة الأحد المذكورة مع رفيقيه مخاطرين بحياتهم ، ووصلوا إلى الدار ودخلوا البستان دون أن يعلم بهم الحراس ، فوجدوا هناك سلما مطروحا على الأرض فوضعوه على الحائط ودخلوا البيت الذي كان ينام فيه ذلك الشقي مع المراة العجوز مربيته ، وفجأة استيقظ الصبي والعجوز خائفين ، مذعورين يرتجفان فبادره بضربة على رأسه قتله على الفور ، واخذ مفاتيح ابواب المدينة والقلعة ، وحمل راس أخيه بيده واخذ يجول على قواد العسكر ، وكان قد مضى أولا عند الذين يعرف انهم مؤيدوه ، وكان الناس يستيقظون في نومهم ويرون راس الأمير المقطوع فيسلمون فورا له ، ثم أخذ مائة رجل تقريبا وصعد عند

انبلاج الفجر إلى القلعة ونصب أميرا جديدا ، وقد خاف الجميع ، أما المؤمنون فقد التزموا بيوتهم ، وأما الأتراك فقد امتطوا خيولهم وامتشقوا سيوفهم وتجمهروا أمام باب القلعة وأخذوا يخاصمون معتقدين أن أميرهم لم يقتل ، لكن لما رمي رأسه من أعلى السور وتدحرج بينهم تأكدوا أنه هو ، حلفوا كلهم لمحمد هذا ، وكذلك حلف هو لهم أيضا ، ولما تنصب وملك الغى الخراج عن دير سيدنا مار برصوم كما وعد ، لكن الرهبان قالوا له إنهم سيعطوه باختيارهم كل سنة ثلاثمائة دينار، على أن يلغي مازاده عليهم الأمير غازي لأنه قبل الأمير غازي لم يكن يثقل على الدير، وكان الأمير غازي قد وضع على الرهبان سبع مائة دينار كل سنة،لكن الأمير عاد فالغى الخراج عن الدير وذلك وفاءا لنذره،أما الرهبان فلم يرضوا واصروا أن يدفعوا الخراج وذلك حتى لايستعدوا المسلمين عليهم،فما كان من الأمير إلا أن زار دير مار برصوم ووهبه مالا ٠

وفي سنة ١٤٨٧ يونانية يوم الأحد الثاني للفصح في ١١ نيسان عند الصباح،وبعد قراءة الأنجيل،أي عند انتهاء الخدمة تقريبا اظلمت الشمس كليا وصار ليل،وظهرت الكواكب في السماء وبدا القمر بقرب الشمس وكان مشهدا محزنا ومفزعا لكثير من الناس فأجهشوا بالبكاء،أما الغنم والبقر والخيل فقد تشابكت مع بعضها من الخوف، وبقي الظلام ساعتين ثم أضاء،وبعد ١٥ يوما في نيسان ليلة الاثنين مساءا انكسف القمر في الموضع الذي به اظلمت به الشمس ٠

المجد لعارف الكل .

وفي هذا الربيع قل المطر وصار حر شديد فيبس الزرع وباقي الحبوب،وصار عطش عام وقد فرغت قرى كثيرة كليا من السكان لاسيما في القدس وفلسطين وسورية العميقة،وبلاد نصيبين،وفي طور عبدين وفي بلاد الموصل،ولم يحصدوا الزرع أبدا وقد فقد الماء تماما حتى لم يعد يشرب الناس والبهائم .

« قدوم صلاح الدين إلى دمشق »

وفي سنة ١٤٨٧ يونانية خرج صلاح الذي كان يملك في مصر واتى إلى دمشق لأنه سمع أن حاكم الموصل قد أخذ من ابن نور الدين حران والرها،فأتى بحجة ابن سيده،وبهذه الحيلة تملك على دمشق ونواحيها ، أما الصبي ابن نور الدين وأمه ومربيته الذين كانوا في حلب فقد خافوا منه،لكنه ارسل رسلا يقول لهم بأنه ماهو إلا عبد وقد جاء ليخدم الصبي ويصير له مربيا ويحارب اعداءه ويطردهم،فلم يصدقوه ولم يفتحوا له الأبواب،ولما نظر ذلك كشف عن نيته الحقيقية فأخذ حمص وحماه حربا وأحضر من مصر ذهبا كثيرا وصار يلقيه كالتراب ويجمع العساكر ، واخرج الفرنجة الذين كانوا محبوسين في دمشق منذ بداية حكم نور الدين وصنع صلحا مع الأفرنج .

أما سيف الدين حاكم الموصل فقد أرسل عساكره ليطردوه،فعندما وصلوا أخذوا يهزؤون به ويحقروه ويدعونه الكلب المكشر على سيده ، أما هو فكان متواضعا جدا فأرسل لهم رسلا يقول لايجوز لنا ونحن بيت واحد أن ننقسم،لكنهم شتموا رسله وهجموا عليه مسرعين لئلا يهرب ويفلت من أيديهم ، لكن الله الذي يكره المتكبرين والمرتفعين أضعفهم ورمى في نفوسهم الخوف والهلع فهربت العساكر على كثرتها ، فأمسك اكثرهم واخذ فيلهم وجمالهم وسلاحهم ، وهنا وقف موقفا يستحق الذكر إذ لما راهم انهم بدأوا يهربون صرخ بصوت عال وطرح قبعته أرضا وقال :لاتقتلوا احدا فهم أخوتنا ، واخيرا حتى الذين كانوا أسرى أعطاهم زادا وخيلا وارسلهم بسلام .

وقد كان لسلوكه هذا وقع حسن في نفوس المسلمين .

اما الذين في حلب فإنهم لما نظروا انتصاره خافوا جدا وارسلوا

هدايا لحاكم انطاكية ليكون مساعدا لهم ، وفتحت الأبواب ليبـاع في حلب الملوك الذين كانوا مسجونين فيها منذ زمـن طـويل ، وقـطع رجاؤهم من العودة ، فبيع كونت طرابلس بثمانين الف،وجوسلين بن جوسلين بخمسين إلف،ورنجر فرينز بمائة وعشرين الف،وكانوا قـد أرسلوا عدة مرات ذهبا من القسطنطينية لأجله فكان يدفع ثمنا لغيره ويبقى هو ،أما الآن فقد خرج مع كل الباقيين .

عاد سيف الدين حاكم الموصل بعد أن انكسرت عسـاكره،فجمـع عسكرا اضعافا مضاعفة،ومضى معه حاكم ماردين وحـاكم حصـن كيفا وكان مجموع الجيش ستين الفا،وكان بإمرة صلاح الدين إثني عشر الفا فقط،فأرسل إليه قائلا : لاتـطلب حـربا لأني إن انكسرت فأنا عبد لا اتعير من أولاد ساداتي ، أما أنت فإنك ملك إذا انكسرت فسيكون هذا عار عظيم عليك ، لكنه استخف به وشتمه،ولما اشتعلت الحرب رشا صلاح الدين رؤساء العساكر الذين كانوا يقودون جيش سيف الدين بمال كثير وذهب وافر فـانسحبوا وتـركوه وحيدا على جمل ، فرجع إلى الموصل يجر أذيال الخزي والعـار ، أمـا صـلاح الدين فقد مضى إلى منبج فسلمه إياها العـرب الذين بهـا واعتقـل الأمير الذي بها ، وكان هذا فيما مضى حاكما للرها واسـمه قـطب الدين ينال بن حسان ، أخذوا مقتناه ظلما ، لكن بعد خمسة أشـهر أخرجه صلاح الدين فمضى إلى الموصل ، وبعد هذا اتى إلى طـاعته الأمراء الذين في تل باشر وعين تاب وباقي بلاد سـورية ، ثـم مضى نحـو أعزاز فهناك هجـم عليه المدعوين بـالحشيشية وضربـوه بالسكاكين لكنه لم يمت ، وعندئذ قتل مهاجميه وأرسل عساكر سبوا بلادهم ، وبعد ذلك أخذ أعزاز بالحرب وحل على حلب ايضا فـالتجأ أهل حلب الى الافرنج فأرسل اولئك الى رنجر الذي كان قد خرج من الأسر فانتصر وقتل عددا كبيرا من العساكر ، ثم دخل الافـرنج الى بلاد دمشق ايضا وقتلوا هناك شعبا كثيرا وسبوا ، ثم أرسلوا ايضا عساكر الى مصر وسبوا تلك البلاد ، ولما تضايق صـلاح الدين مـن الافرنج رد أعزاز الى حاكم حلب وصنع معهم صـلحا ، ورجـع الى مصر مسرعا.

« حرب بين الأمير منويل وقلج ارسلان »

لما سمع منويل ملك اليونانيين أن ابن اخته قتل على باب نوقيسارية هجم غاضبا على الأتراك يريد الانتقام ، لكن السلطان امر عساكره أن لايحاربوا ، بل أن يمضوا مجموعات حول معسكره من اليمين واليسار والخلف ، وينهبوا القرى وكل انواع القوت للبشر والبهائم ، وكذلك أن يسمموا مجاري المياه والعيون والآبار بجثث الكلاب الميتة والحمير وبكل انواع النتانة والنجاسة .

وامر ايضا الذين في القلاع أن لايحاربوا بل أن يقاوموا قدر الامكان وإذا ضعفوا فليحرقوا البلدة كلها وينتقلوا ، اما السلطان فقد صعد إلى جبل عال ووعر وكان ينتقل فيه من مكان إلى مكان ، حينئذ دخل الملك بقوات إلى عمق بلاد الأتراك مسيرة خمسة أيام ، ولما راه التركمان سكان تلك البلاد خرجوا كالذباب الذي ليس له عدد على ملك اليونانيين ، واخذوا يحرقون ويخربون ويقتلون كل من وجدوه خارج معسكر اليونانيين ، ولما وصل اليونانيون إلى قرب قونية ، وصارت تفصلها عنهم مسافة يوم ، بينما كان يفصلهم عن المكان الذي يختبىء فيه السلطان مسيرة ثلاث ساعات دخلوا بين الجبال في موضع ضيق ليس فيه ماء ، وكان برفقتهم خمسة الاف عربة تحمل المؤن والسلاح وخشب المنجنيقات ، وذهب البيع والصلبان ومقتنيات اخرى متنوعة ، فانتظر التركمان حتى ابتعد الملك وعساكره عن قافلة العربات هذه ، فهاجمها نحو خمسين الف رجل فسبوا ونهبوا كل المعسكر ، فلما سمع الملك وعسكره أن متاعهم ومؤنهم واسلحتهم قد سبيت ، كذلك هاجمت القوة التي كانوا ينتظرونها خافوا وارتبكوا ، ولما علم الأتراك بخوفهم اخذوا يدحرجون عليهم الصخور الكبيرة من رؤوس الجبال ، وقد دهست وهشمت هذه الصخور الناس والحيوانات ، وكان الجنود يتدافعون للالتجاء في الخنادق وهم مزعورين من ملاقاة الترك ، وقد وصل

الأتراك إلى مسافة قريبة منهم ، حتى أنهم استطاعوا أن يرموهم بالسهام ليلا ، حينئذ وفي منتصف الليل أرسل الملك إلى السلطان طالبا الصلح ، أما السلطان فكان بدوره خائفا ، لذلك قبل سريعا ، وكانت الرسل تأتي وتروح بالمصابيح طوال الليل ، وأعطى الملك للسلطان المدن الثلاث التي بناها ، وفي الصباح نادوا بالصلح ، فتحلق الترك حول السلطان وأخذوا يصيحون كافر ، كافر من قبل الصلح،واضطر الملك أن يصطحب معه ثلاثة أمراء من أمراء السلطان حتى لايتجاسر عليه التركمان ، أما الترك فلم يلتزموا إذ عندما بدأ اليونانيون يرحلون كان الترك يهاجمونهم من كل جانب ويقتلون اليونانيين ، وحينئذ قال الملك للأمراء الذين عنده:لماذا يحدث هذا بعد توكيد الاتفاق بالايمان؟ فأجابوه: هؤلاء ليسوا تحت أمرنا ، عند ذلك صنع الملك كمائن للترك ، فقتل منهم عشرين الفا ، لكن لما دخل الملك القسطنطينية أرسل ذهبا كثيرا إلى السلطان ، وأخذ الصليب الذي يحتوي على قطعة من الصليب الذي صلب عليه المسيح ، وبعد ذلك أرسل السلطان إلى الخليفة في بغداد وإلى كل الأمراء وإلى سلطان خراسان عددا كبيرا جدا من العبيد والسلاح ورؤوس اليونانيين وشعورهم،محمولة على رؤوس الرماح، أو مربوطة في أذناب الخيل ، وهكذا كانت نهاية اليونانيين ومن لايستطيع أن يعترف أن كل هذا يصير بأمر الله وأحكامه غير المعروفة؟!

« موت نجم الدين حاكم ماردين »

في عام ١٤٨٧ في ٢٧ تموز مات نجم الدين حاكم ماردين ، وذلك بعدما ملك اثنان وعشرين عاما ، وكان عهده عهد خير ورفاهيه لشعبه عامة وللمسيحيين خاصة ، كذلك كانت البيع والأديرة .

ملك بعده قطب الدين فاضطهد أعمامه وضايقهم كثيرا ، مما دفع حاكم الموصل وحاكم حصن كيفا أن يتوسط لهم حيث صاروا بعدها تحت طاعته كما كانوا ايام ابيه ، ثم اتى اثناءها حاكم حاني وحاكم دارا ودخلا قلعة ماردين وسجدا له وتصالحوا ، وبعد هذا أذيع خبر انه مات وأن الخراب عم بلاده ، لكن تبين انه كان مريضا فشفي وعاد كما كان ، ثم تحارب مع العرب وقتل منهم الوفا واخذ من جمالهم إثني عشر ألفا من الجمال ، وهرب الباقي ثم تصالحوا واصطلحت البلاد .

وفي هذا الزمان خرج ملك اليونانيين للصيد فضربه خنزير بري وذاع خبر انه مات ، فقام السلطان وسبى بلاده ، لكن الملك الذي تعاف اكتشف أن السلطان لم يحفظ الجميل الذي كان قد أسلفه إياه فغضب جدا ، وزاد نار غضبه الأمراء أولاد دانشمند الذين هربوا من أمام السلطان ، الذي سارع فأخذ بلادهم ، فالتجأوا إلى القسطنطينية إلى الملك ، فأخذ السلطان بلادهم لقمة سائغة ، لذلك جهز الملك جيشا غطى وجه الأرض ، وسير أمامه أولاد دانشمند ، وعندما وصل هذا الجيش إلى حدود الأتراك أخذ يضايق السلطان ليعيد أولاد دانشمند إلى بلادهم التي كان السلطان قد أخذها منهم ، وكذلك لكي يتنازل لأخيه ،لكن السلطان رفض ، وعندئذ افتتن الجانبان ، وقام الملك ببناء مدينتين كانتا مخربتين منذ زمن بعيد ،ووضع بهما عسكرا أخذ يهاجم الأتراك ، ثم أرسل الملك جيشا فنهب وسبى شعب التركمان وقتل منهم الوفاءوحينئذ توجه

التـركمان الى ناحية الشـمال ودخلوا إلى بـلاد اليونانيين دون أن يعلموا اين هم فسـبوا مـائة الف مـن الناس ، وقتلوا الرجـال والنساء ، أما الأولاد فقد باعوهم إلى التجار ، وظلوا يتقدمون حتى وصلوا إلى فارس ، وحينئذ هاجم الملك السلطان فهرب مـن وجهـه واخذ ينتقل من جبل إلى جبل ،.والملك يطـارده ، وكان في الحقيقـة لايريد أن يتحارب مع الملك .

ثم أرسل الملك مع الأمير ذي النون ثلاثين الفا من العساكر ليملك نوقيسارية،فحاصروها وعندما أرادوا أن يقتحموها احتال الأتـراك الذين في داخلها ، فكتبوا رسـائل على لسـان المسـيحيين الذين في داخلها إلى رئيس عسكر اليونانيين يقـولون فيهـا : إن الأمير ذي النون الذي وضعت ثقتـك فيه مـاهو إلا إنسـان مـكار ، ويريد خداعكم ، وهو متفق مع الأتراك أبناء جلدته وعشـيرته ، ويسـتعد لاهلاككم ،ووجهوا الرسالة بواسطة سهم إلى معسـكر اليونانيين ، فارتعد اليونانيون وخافوا ، وأخذوا يهـربون وحينئذ خـرج عليهـم الأتراك من ضمن المدينة وهم يصرخـون : لقـد مـات منويل الملك ، وبدأوا القتل فيهم ، فقتل رئيس العسكر ابن أخت الملك ، وهرب ذو النون إلى الشمال فأمسك به اليونانيون وأرسلوه إلى الملك .

وبهذا الزمان أمر الرب فعبرت أيام الجفاف ، وعاد المطر فجرت الينابيع ، والعيون عادت متفجرة ثانية ، ونجا البشر والبهائم مـن العطش ، لكن الأرض لم تنتج غلالها

وفي عام ١٤٨٧ غضب الله فأجدبت الأرض وعم الجـوع وصـار المساكين يتوسلون في كل مكان ، وصـار بـالقدس ودمشـق وحلب وبريه المليحة كيل الحنطة بثلاثـةذهبيات ، وبعد مـدة فقـد لم يعـد يوجد ، وفي هذه الفترة أتت قوافل العرب بجمالها الكثيرة ليأخـذوا حنطة ، وصار يباع الذهب الأحمر في بـلاد سـورية بنصـف ثمنه ، وارتفع سعر الحنطة في هذه البلاد حتى صار المد بدينار .

وفي هذا الزمان تراءى في السـماء في ناحية المغـرب شيء يشـبه

نصف القمر ، وقد صعد إلى ناحية المشرق ، وكلما كان يصعد كان يكبر حتى صار بحجم القمر ثلاث مرات ، ثم استقر في وسط السماء ، وانفجر إلى ثلاث قطع وسقط ولم يعد يظهر أبدا ، ولما انكسر ملك اليونانيين عرف كل واحد أن هذا كان إشعارا بذلك .

« فرار صلاح الدين عند عسقلان »

في تشرين ١٤٨٩ يونانية خرج صلاح الدين من مصر وأخذ معه ثلاثة وثلاثين ألفا من الفرسان ماعدا المشاة وغيرهم واثنين وخمسين ألف جمل يحملون السلاح والذخيره لبلاد القدس ، وقد قتل بيده أول أفرنجي أسروه ، وغسل ثيابه بدمه فارتاع الأفرنج ، وكان ملكهم مصاب بمرض الجذام ، وكان كل واحد يخاف أن يقترب منه ، لكن الله الذي يظهر قوته في الضعفاء نفخ الشجاعة في قلب الملك المريض فخرج نحو عساكره ، فاجتمعوا حوله وحينئذ ترجل عن صهوة جواده ، وسجد أمام الصليب وأجهش بالبكاء وأخذ يتضرع ، فهاجت حمية الجنود وأقسموا على الصليب أن يحاربوا حتى النهاية ، وإذا كسرهم الأتراك فكل من يهرب قبل أن يموت يعتبر كافرا ، أما الأتراك فقد استهانوا بهم بعد أن علموا بانهيار حالتهم المعنوية ، لكن الأفرنج لما رأوا الأتراك بأعدادهم الهائلة يغطون التلال ويتموجون كالبحر نزلوا من مراكبهم ، وجذوا شعورهم وتعاهدوا مع بعضهم ، وصلوا الصلاة الأخيرة ، وبدأوا الحرب ، وفي ذلك الوقت أرسل الرب ريحا قوية كانت تجرف التراب من ناحية الأفرنج وتلقيه على الأتراك ، وحينئذ علم الأفرنج أن الله قد قبل توبتهم ففرحوا وتشجعوا ، أما الأتراك فقد هربوا من ساحة المعركة ، فلحق بهم الأفرنج وكانوا يقتلونهم ويذبحونهم طوال النهار ، وبعد هذا نهبوا أمتعتهم وأخذوا جمالهم ، وأخيرا تبددت عساكر الترك وتاهت وبقيت خمسة أيام على هذه الحالة ، وعسكر الأفرنج يلاحقونهم بعد أن تحولوا إلى شراذم أنهكها الجوع والعطش والاعياء فقتلوهم ، وجمعوا أسلحتهم وثيابهم ، أما صلاح الدين فقد هرب إلى مصر مع ثلة من حرسه يجرون أذيال الخيبة والحزن ، وأما الأفرنج فقد وصلوا إلى أنطاكية فرحين يصيحون في الشوارع مبتهجين بهذا الانتصار ، وقد كنت في أنطاكية وقت ذاك .

وفي هذه الأيام عندما علم والي قلعة حارم التركي أن حـاكم حلب يستعد لاعتقاله وقتله تمرد عليه ، فـالتجأ إلى الافـرنج فـاقسم له فرينز أن يساعده ليبقى في قلعته ، ولما عقد هذه المعاهدة مع الافرنج صـار حينئذ عدوا للأتـراك ، لكن الافـرنج سرعان مـا تخلوا عن عهودهم وداسوا قسمهم ، فأتوا من القدس ومن ساحل البحر وأتى معهم والي طرابلس وروفين حاكم قيليقية وكونت فلنط (٤٧) مضى مع فرينز حشد كبير وحلوا على حارم أربعة أشهر كانوا يحاربون فيها بشراسة ووحشية ، وقد قتلوا العـديد مـن الشـعب الأعزل ، وقـد انتصروا على الرغم من أنهم تجـاوزوا يمينهـم ، وحلفـوا كذبـا بالصليب والانجيل ، لكن الأتراك الذين كانوا يدافعون عن القلعة لما أحسوا بالتعب أرسلوا إلى حلب وأخذوا قسما من حاكمها وسلموه القلعة فأعطى لفرينز عشرين ألف دينار ، فرجع إلى أنطاكية خـائبا حزينا كسير القلب لأنه لم يستطع أن يحقق مايريد .

« احتلال قلج أرسلان ملطية »

بعدما صنع السلطان قلج أرسلان صلحا مع منويل ملك اليونانيين ، حل على ملطيه وكان بها أمير من أسرة دانشمند هو الذي قتل أخاه ، وكان هذا مع جنوده أشرار المسلك ، وقد خرج أكثر المسيحيين منها هربا من الجوع الذي كان منتشرا في كل مكان وخصوصا فيها ، أما الذين بقوا في المدينة فكانوا يعيشون بحالة من الشقاء ، وكان قسم منهم يرقد في أعماق السجون ، والآخر في المعتقلات يتعرض للتعذيب والجلد ، فلما حاصرها قلج أرسلان خاف أمير المدينة أن يقتله الشعب ويسلموا المدينة ، لكثرة الشقاء الذي يعيشون فيه ، فأرسل سرا إلى السلطان وطلب الأمان لحياته طالبا مغادرة المدينة بالذهاب إلى قلعة زياد ، فدخل السلطان ملطيه يوم الأربعاء ٢٥ تشرين الأول ١٤٨٩ يونانية وقد عم الفرج والراحة الجميع بعد أن كان قد حاصرها أربعة أشهر كان فيها الجنود يقيمون في بيوت انتزعوا حجارتها من المقابر ، وبنوها بسرعة من اللبن إتقاء لبرد الشتاء ، وهكذا أراح الرب الا له هذا الشعب المظلوم .

وفي هذا الزمان أدب الرب أيضا الأرض فمنع المطر لأجل آثامنا فيبست الغلال ، وحدث جوع في سورية وفلسطين وآشور ، وبين النهرين وأرمينيه وصار كل كيل من الحنطة بدينار إن وجدت .

أما في دمشق فقد فقدت الحنطة وكذلك باقي الحبوب ومات بسبب الجوع أعداد كبيرة وأعداد أخرى هربت الى بلاد بعيدة جدا وكان المسيحيون في كل مكان يصلون ويطلبون من الله أن ينزل المطر وقد تصدق عدد كبير من الملوك الذين عندهم حنطة على المحتاجين .

كما أن همفري بطريرك الافرنج في انطاكية وهب حنطة وحبوبا أخرى بكثرة وفي كل مكان ، ثم أشفق الباري تعالى فنزل المطر في

- ٢٢٠٠ -

نصف فصل الربيع ، وارتوت الارض وابتهـج الجـو وصـار البشر يسبحون الله ، وصار خير ورفاه في كل البلاد .

خروج صلاح الدين من مصر وانتصاره على الافرنج

في تشرين الأول اجتمع مع بدوين الملك جميع الافرنج على شاطىء الاردن في الموضع المدعو مخاضه يعقوب وابتدأوا يبنون مدينة يستطيعون بها أن يحاصروا دمشق ، كذلك خرج صلاح الدين من مصر وأتى إلى دمشق لانه تمرد عليه الأمير شحنه مدينة بعبلك ـ هيلوبولوس أي مدينة الشمس ـ ولما حاصرها وأخذ يهاجمها بدأ أميرها يراسل الافرنج ويرسل لهم الهدايا متعهدا أنه سوف يطيعهم ، ولما لم يتجاوب معه الافرنج وخاب أمله منهم رجع الى صلاح الدين وأخذ عهدا منه وسلمه المدينة ، حينئذ دخل صلاح الدين الى أرض فلسطين لكن عادوا فجمعوا قواتهم ، وعندها انسحب صلاح الدين الى دمشق فما كان من الافرنج الا ان سبوا البلاد مسافة مسيرة يوم ورجعوا ، لكن صلاح الدين مالبث ان ارتد عليهم وهاجمهم وأمسك منهم مائة من المقاتلين وكذلك مقدم الرهبان الداوية ، وقد تألم المسيحيون جدا أما صلاح الدين فقد قوي ورجع مسرعا إلى الموضع الذي بنوه حديثا وحاصره وكان به خمسمائة من الرهبان الداوية ، لكن بعضهم رمى نفسه بالنار واحترق وبعضهم الاخر القى نفسه في الاردن ومات غرقا خوفا ان يقعوا في أيدي العرب ، اما الذين وقعوا بيد العرب فقد قتلوا جميعهم بالسيف .

في هذا الزمان خرج من جزيرة العرب حشد كبير من الناس هربا من الجوع ، ولما وصلوا إلى شاطىء الفرات أمرهم الأمراء أن يرحلوا لأنه ستكون مجاعة بسببهم لانه لايوجد طعام يكفي لهم ، وإذا بقوا فسوف تحل المجاعة ، لكنهم رفضوا ، فهاجمهم الاتراك وقتلوا منهم ثلاثين ألفاوعندئذ عبر ماتبقى منهم الفرات ، ولما دخلت جمالهم ونساؤهم ورجالهم وأولادهم الماء جرفهم التيار فماتوا ثم عادوا وطفوا على وجه المياه كالقش .

في ايار عام ١٤٨٩ يونانية كنت في أنطاكية فنزل مطر شديد

وتكونت سيول بداخل المدينة فجرفت البيوت والدور ، فاختنق العديد من البشر والبهائم ووصل السيل الى ابواب المدينة وكان غزيرا لدرجة لم نستطع معها ان نفتح الابواب ، وقد دب الزعر والهلع في قلوب الناس .

وفي السنة التالية ، وكنت في انطاكية ايضا ، كان الشتاء لطيفا مثل الربيع ، لكن في شهر اذار سقطت نار في المدينة واحرقت بيوتا ودورا كثيرة قرب بيعه مار بطرس الكبيرة ، وقد حفظ الله تعالى الناس ، ولم يتضرر احد .

في تلك السنة وكنت في انطاكية ارسل بابا روميه رسلا للبطريرك الانطاكي والمقدسي للافرنج يستدعيه لاجل بدعة ظهرت هناك فأرسل الينا بطريرك انطاكية اسقف طرسوس وقسيسين من قبله ، وطلب مني ان امضي معه ، اما انا فقد بحثت عن السبب فوجدت ان مجموعة من الافرنج في تلك الارض كانوا مشهورين بتقواهم وصلاحهم فأضلهم الشيطان فقالوا : لايمكن للخبز والخمر ان يصيرا جسد الرب ودمه ، وان التطبيق العملي للدين هو التصدق على المحتاجين والرحمه بالمساكين ، ومحبة البشر واتفاقهم مع بعضهم ، وصار لهم اساقفه وقضاة ، واتحدت معهم بعض البلاد ، واباحوا نساءهم،عندئذ دعا افسومولوس بابا روميه الى مجمع مسكوني،اما نحن فقد رفضنا ان نذهب معهم لكننا كتبنا رأينا في مثل هذه البدع ، وذكرنا امثله لبدع مثلها انتشرت فيما مضى ، وقد حرمتها كنيستنا .(٤٨)

وبهذا الزمان اقمنا بنعمة الله في ماردين المطران مار اثنا سيوس وارتحلنا الى انطاكية وهناك ارتسم ديونسيوس لمدينة حلب .

وبهذا الزمان تحدث بعضهم الى السلطان الذي ملك ملطية ان رهباننا واهل الدير انهم ساعدوا الامير الذي كان فيها من قبل ، ولاجل ذلك اعفاهم من الخراج ، فقام عندئذ ذلك السلطان ووضع عليهم خمسمائة دينار ، وضعهم من مقابلته ، ثم طرد من ملطية ، ومن كل بلادها الترك الذين تعاونوا مع اسرة الدانشمند .

وبهذا الزمان حدثت بيني وبين مـار يوحنا المفـريان مشـاجرة بسبب الحصـيصيين في بـلاد تـكريت ، اولئك الذين كانوا منذ ايام فوريا قوس البطريرك (٤٩) وقـد انشـقوا عن البيعـة لاجـل لفظه : « نكسر خبز السماوي » والان ارادوا ان يعـودوا الينا ولما جاؤوا الي وارادوا ان ارسم لهم اسقفا ، قلت لهم : ان المفريان هو الذي يرسم لانه رئيس اساقفة تكريت ، وينبغي الا تكونوا منشـقين عن اخوتنا الذين هناك ، فأماهم فـاعتبروا ان هـذا اهـانة لهـم ، فطلبوا منا ان نرسم اسقفا وهم يقبلون بعـد ذلك ان يكونوا تحـت طاعة المفريان ، فاستمهلتهم لاتشاور مع المفريان وذلك حتى لايقـع شقاق بيننا ، فكتبت للمفريان ، لكنه لما عرف ان الحصـيصيين قـد أتوا الي اعتقد انه اضاع كرامته ، فأخذ ينادي بين رعاياه بحـرمان الحصيصيين وحرمان كل من يقبلهم ، ولما سمعنا اندهشنا واخـذنا الامر بطول الاناة ، وارسلنا له رسلا ورهبانا ليشرحوا له الوضع ، وانه كم عانى الاباء القديسين امثال قريا قوس وديو فنوس ، وكذلك اقرار مجمع خلقيدونيه بقبول عودتهم والاذن لهم بقول تلك اللفظة ، لكنه رفض ان يستقبل الرسل ، وكان يلوح بالعصيان ، لكن بعـد ان عاد الرسل وبخه بعض الحكماء على فعلته ، فأتى الينا نادما ، امـا انا فرفضت مواجهته وقلت : ان هذا الامر يجـب بحثـه في المجمـع فرجع الى رعيته ثم جمعنا مجمعا في دير مار برصوم ، واتـى هـو واساقفته فاوضحنا له كيف وكم تجاوز من القوانين ، عند ذلك طلب الغفران بالطاعة ووعد بالناموسية ، فصلينا عليه ، وصـار الصـلح والسلام .

وفي تشرين الاول سنة ١٤٩٠ ارتحلنا من انطاكية ، وقابلنا الملك الصبي بلدوين في عكا ، وعرضنا عليه كتاب ابيه ، فلما رآه معنا فرح جداً واكرمنا ثم زاد واعطانا كتابا منه مع عهد ، وحينئذ وصلنا الى القدس ، وهناك اتى الينا الرسل في مصر الذين ارسلهم مار مرقص بطريرك الاسكندرية ، واعلمونا عن الانشقاق الذي وقع بهذا الزمان بين اخوتنا القبط ، وكان رجل اعمى يدعى ايضا مرقص ، ومشهور بابن قنبر ، وكان حاذقا جداً بالكلام ، فبدأ يسـحر الناس بـكلامه

المعسول كقول الرسول الالهي القائل : كما ان الشيطان يتجاسر ان يتشبه بملاك النور فهكذا أيضا خدامه يتشبهون بخدام الرب .

لذلك حرمنا ابن قنبر هذا كما حرمه مار مرقص لنفـــاقه ، وكتبنا صحيفه مستفيضة للشعب ، بعـــد هـــذا تبـــع الخلقيدونيين واخيرا انجرف وارتمى في بحر الشرور .

مرض منويل ملك اليونانيين وموته

في سنة ١٤٩١ يونانية (١١٨٠ م) مرض منويل ملك اليونانيين ، وشعر بدنو اجله فالتجأ الى احد الاديرة ، وترهب ونصب ابنه الكس ، وكان صبيا لايتجاوز الثانية عشر ربيعا من عمره والبسه التاج ، كذلك صنع زوجته ، اي ام الصبي راهبه ، ووكلها على خزائن المملكة واقام اثني عشر شيخا من النبلاء ليدبروا امور العسكر ، وكان منويل قد حكم سبعا وثلاثين سنة ، ونجح كثيراً في حكمه ، لكن بعد موته عم الفساد المملكة لان ام الصبي الراهبه ارتكبت الزنا مع واحد من الاثني عشر الذين كان قد نصبهم الملك للاشراف على الجيش فقام الاحد عشر الاخرون وارادوا ان يخلعوها ويخلعوا ابنها ، ويقيموا ابنة منويل الملك من المرأة الاولى ، ويبايعوا زوجها ملكا ، لكنهم لم يوفقوا في هذا المسعى ، فلقد انكشف امرهم ، فخافوا والتجاؤا الى البيعة الكبيرة ، ثم حدثت مواجهة دامية في وسط المدينة كانت بمثابة حرب حقيقية دامت سبعة ايام ، وقد صوب جماعة الملك المنجنيقات نحو كنيسة أيا صوفيا حيث كان يعتصم المتمردون ، وحينئذ توسط ثيودوسيوس الذي ضمن سلامةالذين التجأوا إلى البيعة بعد اخذ عهداً من الملك وامه ، فخرج الجميع الى السراي لكن الملك وامه داسا يمينها والعهد الذي قطعاه للبطريرك وامرا باعتقال الزعماء الاحد عشر وقلع عيونهم وقتل اتباعهم,وحينئذ اندلع القتال من جديد ، فقام بطركهم وحرم المدينة كلها ، واوقف الصلوات في البيع ، وابطل قرع النواقيس في البيع والاديرة من اول شباط الى تشرين الاول حتى انه رفض ان يصلي على موتاهم ، ثم اعتصم في دير قريب من المدينة .

هجوم السلطان قلج ارسلان على مدينة رعبان

في هذه السنة ١٤٩١ يونانية (١١٨٠ م) ارسل السلطان قلج ارسلان جيشا الى رعبان ، لكن اميرها التابع لصلاح الدين المصري ذهب الى دمشق ، واحضر منها جيشا ، ولما رأته عساكر كبدوكية هربت وعادت الى مدينتها ، صحيح ان الفريقين اتراك لكن الذين من حلب كانوا اكثر خبره في القتال وفنون الحرب نتيجة صراعهم وكرهم وفرهم الدائم مع جيوش الافرنج.

وفي تلك السنة ارتسم لقلعة زياد يشوع الكاتب في طور عبدين ، وقد تجاوز منذ البداية الناموس وترك الكرسي الذي ارتسم عليه ليستولي على طور عبدين ، فالتجأ الى سعد الدين الوالي الذي سارع فكتب لي بأن انقل اسحق مطران طور عبدين ، اي ايونيس ، الى قلعة زياد وان اعطي طور عبدين ليشوع الكاتب ، فأجبت الحاكم قائلا : ليس لنا في ناموسنا ان ننقل الاسقف في مكان الى اخر ، ولذلك لايمكنني ان اصنع هذه قط ، اما يشوع فقد حرمته .

في سنة ١٤٩١ يونانية (١١٨٠ م) قدمت من انطاكية الى دير مار برصوم ، ووضعنا الاساسات لنبني هيكلا بالدير ، فقام ضدنا تادروس ربما بدافع الحسد ، وبقي اثني عشرة سنة يعرقلنا ، ويضع المصاعب في طريقنا ، وسوف اكتب ماحدث معي بالتفصيل والله يشهد انني صادق في روايتي وكذلك يشهد معي عدد كبير من اخوتنا الاساقفة والرهبان والشمامسة والعلمانيين ان ما اكتبه حق ، هذا على الرغم من انني لن استطيع ان اتكلم عن كل افعالهم الرديئة التي فعلوها ، بل سنروي امثلة منها ليتضح كيف بدات الحكاية وكيف انتهت .

ففي هذا الزمان اتفق خمسة اتفاقا شيطانيا ليشقوا بيعة الله ،

فقد حاول اسقف ارزون(٥٠) ان ينتقل الى ميافارقين بطريقة غير قانونية معارضة ، فامتلا بغضا وحقدا علي ، كذلك يشوع الكاتب الذي ارتسم لقلعة زياد احتمى بالحاكم لينتقل الى طور عبدين ، ولما انحرم ناموسيا اتحد مع شمعون سرا ، ومضى كلاهما الى آمد إلى ابراهيم الذي كان اسقفا هناك ، وكان محروما لاجل جهالته ، وجرف هؤلاء الثلاثة معهم مطران سيبارك المظلوم ، الذي كان قد حرم ايضا لأنه داس القانون وأخذ رشوة على الشرطونية التي صنعها ، فاتفق اربعتهم ورفضوا

واخذ رشوة على الشرطونية التي صنعها ، فاتفق اربعتهم ورفضوا الحرم الذي وضع على كل منهم ، واذاعوا ان من لايقوم ضدي يكون غريبا عن رئاسته ، وليس له سلطان ان يصنع شرطونية وان تجاسر وصنع فتكون باطلة من الروح القدس ، ثم اتى اليهم ابن الشيطان وراس الطغمة ، بلاير الثاني ، وكان هذا قد طرد من ملطية بلده ، وانفضح في الرها ، ونفي من القدس ، ثم تجول كثيرا وكل مكان حل فيه كان يطرد منه ، واخيرا التجا إليّ فسامحته لظني استطيع ان اصلحه واحوله الى انسان صالح ، لانه متعلم درس في الكتب ، وقد ابقيته سبع سنوات في قلايتي متحملا غشه وخداعه ، فقد كان جالسا على باب قلايتي مثل ايشالوم يتصيد كل واحد يختلف معي ويصفه الى جانبه ، وهكذا سرق هؤلاء الأربعة واقنعهم ان يصنعوه بطركا ، مقابل ان يعطي لكل واحد منهم رعيتين بدل الرعية الواحدة ، ثم تجمعوا وذهبوا الى السلطان حاكم امد ، ووعدوه بذهب كثير اذا ساعدهم بتنصيب بطريرك ، يكون مقره في مدينته ، وبالتالي يقوم ويجمع من كل مكان ويعطيه . لكن ذاك لم يكن سهلا عليه ان يهدم نواميس ، ورتب بيع المسيحيين لاجل الذهب ، بل وكذلك نواميس المسلمين ، واعطاه كتابا للمدعو ابن وهبون من ابي القاسم ابن نيسان ، ولما اخذ ابراهيم اسقف امد الكتاب خلع ثياب الكهنوت ، ولبس كسوة الترك ، وركب فرسا كالجندي لكي لايعرف ، ومضى الى ابن وهبون ، لكن الرب انزل غضبه على ذلك الحاكم الذي في آمد في تلك الفترة ، فمات فجاة ، اما هم فلكونهم قد

دفعوا الذهب تقدموا الى ابن الذي مات ، وزادوا له الذهب واظهروا له كتاب ابيه ، فانن لهم ان يصنعوا مـايريدون ، لكن هـذا الخبـر سرعان ما انكشف في آمد ، فهـاج الشـعب ومـاج ليس في المدينة ، وانما في كل البلاد واجتمع القسس والرهبان والشعب وضجوا على الحاكم قائلين : اننا لن ندع ان يهـدم ايمـاننا ، فقـال السـلطان للشعب ، اذا اتى بطريركم الينا سـنطرد هـذا ، فقـال الشـعب : سنحضر بطريركنا ، وحينئذ امر ان لايرسم ذاك وللحـال اتـى الي قسس آمد ورهبانها والعلمانيين المكرمين ، وخرجت معهم مـن دير مار بـرصوم ، لكن اولئك الاشـقياء احتلوا ليلا البيعـة واغلقـوا الابواب ورسموا تـادروس المنافـق بـطريركا ، في الصـباح غيروا اشكالهم وغطوا رؤوسهم وخرجوا مـن بـاب المدينة وتـوجهوا الى الموصل الى عند المفريان ، فلما سمعت بما صار حزنت على البيعـة التي لم يحدث ما حدث فيها الان منذ اجيال ، وقررت ان اعتزل مـن الخدمة التي ربما لااكون اهلا لها ، فلمـا عرف المجتمعـون بـذلك اجهشوا بالبكاء ، وقالوا : ان تركت منصبك فسوف يهدم كل شيء ، فخاف قلبي فقررت ان ادعو الى مجمع وذهبـت معهـم الى آمـد ، فابتهج الحاكم جدا وفـرح ووعدنا خيرا ، فـاعتز كل شـعب المدينة والبلاد والتحموا واتوا مـن كل مـكان اسـاقفة وقسس ورهبـان وعلمـانيون ، حيث تـوجهنا الى دير مـار حنينا ، (٥١) لكن اولئك الاشقياء مضوا الى الموصل لكي يظهر ان المفريان متفـق معهـم ، وخصوصا بعد المشاجرة التي صارت بيني وبينه قبـل مـدة ، فلمـا نظروا ان المفريان لم يقبلهم بل اتى الينا مع مطارنة كل ابرشياته ، ثم ان شعب المشرق قد تبرأ منهم اخذوا ينتقلون من مكان الى مكان محتارين ، ولما وصلوا الى مـدينة دارا امسـكهم زعمـاء المؤمنين واخبرونا ، وكنا في دير مار حنينا ، حينئذ خرج المفريان واسـاقفة وجملة رهبان واتوابهم مـوثوقين ، حينئذ اقـروا امـام المجمـع باخطائهم وحرموا افعالهم كتابة .

لكن لما ارتحلنا جميعا لنمضي الى دير مار بـرصوم ونعقـد هناك مجمعا مسكونيا ، عاد فدخل الشيطان بهم وهـم في الطـريق فـكفر

تادروس بالامانة وداس القسم الذي كتبه بيديه على نفسه ، واعطى ذهبا لاناس ذهبوا واتوا بالاكراد ليلا فـاخذهم الاكراد واخفـوهم ريثما نرحل ، ولما عرف ذلك المطارنة والمفريان حنقوا علي قـائلين : لماذا لم تدعنا نربطه ، ثـم خـرج كل واحـد الى ناحية ، فـوجدوه متخفيا ، فامسكوا به ثانية وسـقناه معنا الى دير مـار بـرصوم ، فاجتمع المطارنة ومعهم شعب كثير ، واقر الجميع ان يخلع لبـاسه الكهنوتي ، وهكذا صار ، وتمت باقي الامور ، ورجع كل واحد مـن الاساقفة الى رعيته ، وهكذا حرم المجمع المنافق ابن وهبـون الذي مكث عندنا في الدير واعلن ندمه وطلب الغفران ، اما انا فقبلته كمـا امرني الانجيل والبسته اسكيم الرهبنية على رجاء التوبة ، واعطيته حاجة من المتاع وقلاية لسكناه ، وقلت ان تبـت فـان المجمـع الذي حرمك سوف يعيد لك اعتبارك ، لكن عليك ان تعلم انك تحت التجربة الان ، وعلى الشرط تركته في دير مار برصوم ، ورجعت الى دير مار حنينا ، لكنه كعادته كفر بوعده وتبع الاشرار مثله فهـرب ليلا مـن اعلى سور الدير بواسطة الحبال ، وذهب الى دمشـق مـع رفـاقه وكتبوا كتابا باللغة العـربية وقـدموه الى صـلاح الدين ملك مصر ، ووعدوه ان يعطوه ذهبا ان وجه كتابا يقبل بموجبه هذا بـطريرك في كل الاراضي التابعة له ، كذلك طلب ان يصدر السلطان صـلاح الدين امرا بقتلي بعد تلفيق كثير من التهم ضدي ، فلما قريء كتابهم امام السلطان صلاح الدين ، استفسر السلطان عنهم فحضر مسـيحيون مؤمنون كانوا يعملون كتابا عند صلاح الدين ، فشرحوا له الحقيقة ، فما كان منه الا ان طرد المنافق ابن وهبـون ، فمضى الى القـدس ، واخذ يخرب على اخوتنا الذين تحت حكم الافرنج هناك وخاصة على البار اثنا سيوس مطران القدس ، ولاسيما بعد ان عرض بـطريرك الافرنجة الذي هناك عليه أن يعطيه الف دينار ، ويأخـذ دير مـريم المجدلية الذي كان لنا في القدس ، ورفض فكان أن ابتلينا مع البيعـة بكثير من التعب والمشـقة ، وخـاصة رعيتنا التـي كانت تسـكن القدس ، وقد بقي هذا الظلم والاضـطهاد علينا وعلى بيعتنا حتـى دخل العرب الى القدس.

وبعد ذلك توجه هـذا الى الشرق لانه سـمع بمـوت مـار يوحنا المفريان فزرع سمومه هناك في الموصل وماردين ، وكان يدخـل على الأمراء الترك فيعدهم بالذهب ، وبذلك اعتـاد الحـكام الاتـراك ان يطلبوا الذهب من كل رعية ، فقد اوقعنا هذا واوقع اخوتنا جميعا في المشرق في حرج عظيم ، لكن هذا الفاسد هرب من هناك كما هرب من فلسطين واتـى الى قلعـة الروم الى عند جـاثليق الارمـن ، ووعده كعادته الشريرة اذا ساعدة واقامه بطريركا فانه يجعل كل الشـعب يطيعه ، وكان قد قال الكلام نفسـه لبـطريرك الافـرنج في القـدس وتوصل بهذه المواعيد الكاذبة الى ان يصير مساعده الى ان اكتشف امره فطرده ، وهكذا صنع بجاثليق الارمـن ، فقـد صـدقه هـذا في البداية ، لذلك جابهني بكل الاسلحة التي عنده ، بـل ارسـل ذهبـا كثيراً ، وهدايا عظيمة الى الامراء الاتراك في سورية وبين النهرين ، واخذ يوغر صدورهم ، وكان يهدف من وراء ذلك ان يحـرمني ويقيم مكاني ابن وهبون بطركا على شرذمة اليعاقبة لكي تصير تحت إمرة الجاثليق ، كما كان قد وعده،كذلك حاول كثيرا مع الحكام العـرب ، لكن الله كان ضده ، ثم خرج الجاثليق من قلعـة الروم بـرفقه ابـن وهبون ، ومضيا الى قيليقية الى ليون الإرمني حـاكم تلك البـلاد ، وهناك طلب من الحاكم ان ينصب ابن وهبون بطريركا في بلاده ، ثم اعطى ابن وهبون كتابا من الحاكم ومـن الجـاثليق ، فخـرج هـذا يتجول في البلاد ، وكان كل راهـب اوقسـيس او أسـقف لايقبله او يرفع رئاسته في صلاته يأخذ ماله ويطـرده مـن بيعتـه ، وقـد اذاق المسيحيين عذابا يفوق العذاب والاضطهاد الذي شـنه الوثنيون ولم ينج منه حتى رؤساء الكهنة ، والكهنة والرهبـان الموجـودين في تلك الناحية ، وعندما وصلت الامورالى ذلك المدى ، جمعت مجمعا عامـا وطلبت منهم اعفائي من الخـدمة ، لكن المطـارنة كلهـم رفضـوا ، واتفقوا ان يذهبوا الى هذا الجاثليق الظالم ويضعوا حداً لتجاوزاته علي ، ثم سيذهبون الى ليون الحاكم ويضعونه بصورة الوضع كله ، ولما رأيت اجماعهم علي قلت : ياأخوتي دعونا نصلي قبل ان نلتجـأ الى السلطان لانه مكتوب : « ملعون من يتكل على انسـان ويجعـل

ابن اللحم نراعه ، بل هلموا نلتجأ الى الله وقديسيه وخاصة مـــار برصوم ، وابتدأنا بالصلاة والطلبات ، وقد شارك معنا كل من حضر عيد القديس مار برصوم ، ثم طفنا بيمين القـــديس ، وقلنا : ياربنا يسوع المسيح بصلاة مار بـــرصوم اشـــفق على بيعتـــك ، واجعـــل عجائبك بمن هو سبب خراب وانشقاق هذه البيعة ، ان كنا نحـــن ام غيرنا ، وفي ذلك اليوم عينه ، وماكانت صـــلاتنا تنتهـــي في دير مـــار برصوم حتى سمعنا ان الجاثليق قد سقط عن حصـــانه في قيليقية ، وانكسرت اصبع رجله فقطعوها ، ثم مات بعد عدة أيام ، ثم إن اثني عشر أسقفا أرمنيا كانوا اتفقوا مع ابن وهبـــون ، كل منهـــم ضرب بنوع من الضربات ، ومات ، وسبعة رهبـــان سريان كانوا يتبعـــون ابن وهبون احترقوا بالصاعقة ، وبعد أربعين يوما تـــاودورس بـــن وهبون سقط عليه غضب الله ومات ، وقد صار هذا عبرة عظيمة لكل واحد ،وخصوصا للشعب الذي في تلك البلاد ،حتى أن ليون الحـــاكم خاف أيضا وأرسل نذرا وهدايا لسيدنا مار بـــرصوم ، ولي ايضـــا وصار صـــلح جميل في بيعـــة الله ، وفي كل مـــكان ، ولاأدعي لنفسي شيئا . وانما الله هو الذي صنع كل شيء باسم مار برصوم ، وكذلك لأجل محبته لشعبه المستقيم .

أخبار البيعة في هذا الزمان

الغضب الذي عم علينا بسبب خطايانا لم ينج منه دير مارمتي في كورة الموصل ونينوى ، وذلك عندما توفي الأتابك قطب الدين ، وتملك ابنه سيف الدين سنة ١٤٨٢ يونانية (١١٧١ م) بعد هذا تحمس نور الدين حاكم حلب وانتصب قائلا يجب ان أتولى تدبير ابناء اخي ، فغادر حلب واخذ يخضع البلاد ، ثم حاصر الدير ، ولما علم الأكراد بمحاصرته للدير فرحوا واخذوا يعيروا المسيحيين ، ثم قرروا ان يخربوا الدير ، واخذوا يترصدونه في الليل ليسرقوه ، لكن الرهبان كانوا متأهبين لذلك ، وقد كسروا سلالمهم مرات كثيرة ، وذبحوا وقتلوا منهم ، حينئذ اجتمعوا واتوا غاضبين على الدير وهاجموه لكن لما سمع أهل قرى بلاد نينوى اجتمعوا عاجلا وصعدوا واسعفوا الرهبان ، وكسروا الأكراد ، فاحتال الأكراد وصنعوا صلحا كذبا مع الرهبان واعطوهم ثلاثين دينارا عربون محبة ، وقد صدق الرهبان صلح الأكراد الكاذب ، فصرفوا أهل القرى الى بيوتهم لكن الأكراد عادوا فاجتمعوا واتوا ، وكانت هناك صخرة عظيمة في راس الجبل فزعزعوها ودحرجوها بعنف فضربت السور واحدثت فيه ثغرة ، فاجتمع الرهبان واحضروا كلسا وحجرا ليسدوا الموضع ففاجأهم الأكراد واخذوا يرمونهم ، ثم استلوا سيوفهم وهجموا بصرخة واحدة على الرهبان ، فقتلوا بعضهم وهرب بعضهم الآخر الى قلعة الدير العالية فنجوا ، وقد قتل في هذه الموقعة متى الراهب ودنحا الحبيس ، وكان الأكراد الف وخمسمائة ، ولما استولوا على الدير حملوا على خيلهم كل مانهبوه لأن الدير كان مخزنا يحفظ فيه كل مقتنى البلد ، وبعد ان مضى الأكراد أخذ الرهبان الكتب وكل ماوجد في القلعة العالية ، ونزلوا الى الموصل وبقي الدير خاليا من السكان والخدمة ، وكان منظرا حزينا كئيبا يعيرنا ، واما أهل البلاد فقد استأجروا جنودا

ليحرسوا الدير ، لكي لايهدم الأعداء البنيان ، وكانوا يدفعون لهم في كل شهر ثلاثين دينارا .

اما حكام الموصل فحين سمعوا بما فعل الاكراد بالدير أرسلوا عسكرا ، وقتلوا عددا كبيرا منهم ، وحينئذ خرج الاكراد وخربوا في بلاد الدساطرة خمسة قرى ، وقتلوا سكانها وسبوا البهائم والمقتنيات واحرقوا البيوت

في هذه السنة ١٤٨٢ يونانية (١١٧١ م) أسلم حسن الراهب والقسيس ابن كميب في ماردين بسبب الخلاف الذي صار بينه وبين اخوته الرهبان ، وقد أخذ العرب ديرهم المدعو دير الأبكار في جبل ماردين وصنعوه مسجدا للاكراد .

وفي تلك السنة ابتدأ المطران ديونسيوس المعلم بتجديد بيعة والدة الرب في آمد ، واقام بها شماسا اسمه ابراهيم كان وكيله ، وقد جمع هذا صبيانا كي يتعلموا القراءة ، وكان هو يتعلم من المطران ويعلم المتعلمين ، وهو ايضا جدد أرض البيعة بتبرعات جمعها منه ومن باقي المؤمنين .

وفي تلك السنة بنينا البيعة التي في دير ابي غالب في بلاد البيرة نواحي جرجر .

وفي تلك السنة جمعنا مجمعا في دير مار حنانيا ، وارتسم من الاساقفة اغناطيوس لتل ارسانيوس وايوانيس لسيبا برك ، وجلب كلاهما من ملطية من دير سرجيسية ومن دير القناة .

يا ايها القراء صلوا على الكاتب الضعيف الخاطي

وفي ايلول سنة ١٤٨٢ يونانية طرد جبرائيل الشيخ رئيس دير مار برصوم رفاقه ، واتى الى عندنا الى دير حنانيا ، فجئنا الى الدير لأجله ، وجاء معنا البار ايا ونيس مطران كيسوم ، وكان بحالة صحية سيئة ، وقد توفي يوم السبت ٢٤ تشرين في دير مار

برصوم ، وكان هذا علامة في التعاليم الكهنوتية ومتكلما ماهرا ومعروفا في البيعة .

وبعد شهر ، اي في تشرين الثاني سنة ١٤٨٢ يونانية تزايد الحزن على شعبنا ، فقد انتقل من بيعتنا نحن المستقيمين المجد ديونسيوس ابن الصليبي مطران امد ، اي يعقوب المعلم المنطقي وكوكب عصره هذا الذي يليق له أن يكنى بالمجاهد مثل يعقوب الرهاوي ، لأنه جاهد كثيرا في التعليم ، وجمع وكتب تواريخ صحيحة ومعتمدة ، وفسر كل كتب الأنبياء اي كل العهد القديم ، وصنع ايضا تفسيرا جديدا للانجيل والرسل والرسائل والرؤيا ، وكذلك لكتب تعاليم غريغوريوس النوسي وكتب سويريوس ، وكتاب بطرس القلونيقي وحياة ابو جريس المتوحد ، وصنع كتابا في الجدل ضد كل المذاهب والعقائد التي تخالف ايماننا المستقيم المجد ، وصنع ايضا كتاب تفسير لمنطق براهين ارسطاطالوس وغيره ، وصنع كتاب منطق اللاهوت ، وكتابا على الأزمان وكتاب رسائل ، وكتب ايضا ميامر وجمع وكتب كتابا عظيما تضمن كل الحان بيعتنا،وقد اغنى البيعة بكل هذه المؤلفات وأغنى نفسه بحفظ القوانين المقدسة ، وقد كتبنا مقالة على كل تدابيره ومحاسنه وشرفه كلها تفي بالغرض وتفهم القارىء مرتبته العالية ، وقد سجي جسده في بيعة والدة الرب في امد في الجانب القبلي عند قبر البطريرك ابن عبدون وابن شوشن ، ليرحمه الرب ويغفر لكل من يقرأ ويصلي ايضا على خطيئتي (٥٢)

وفي سنة ١٤٨٣ يونانية في شهر تموز أخذ العرب بيعة مارتوما في ماردين ، أما السبب فهو ان شخصا اسمه برصوم من ماردين ضبط يزني مع امرأة مسلمة ، فأمسكوه وعذبوه لكن نجا من الموت ، فحكم عليه الوالي حسام الدين ان يأخذ أمواله ومقتناه ويرحل ، وفي هذا الوقت كان المسيحيون يجددون بنيان بيعة مار برصوم ، فاحتال بعض العرب وقالوا للوالي : ان برصوم هذا قد

بنى بيعة من ماله الخاص وسماها باسمه ، فأصدر الوالي امرا بهدمها فهدموها ثم بنوها مسجدا وقد عم الحزن القوي جميع المسيحيين الذي جاهدوا كثيرا ليخلصوا البيعة من الهدم ، لكن عملهم هذا انعكس عليهم سلبا فتجمهر الشعب واشتكى للوالي وحاول المسيحيون ان يقابلوا الوالي ليزيلوا من امامه اللبس الذي صار ، لكنه رفض استقبالهم ، بل غضب عليهم وكان هو في الأصل ناقما على المسيحيين بسبب حسن بن كميب الذي ذكرناه من قبل . الذي كان راهبا وقسيسا وكان له اخوان من رهبان الافرنج ، فاختاف معهما ، فالتجأ الى المسلمين واعلن اسلامه لكنه مالبث أن هرب الى القدس وعاد فتنصر ، ولما سمع الوالي بذلك أمسك اخوته وجملة من الرهبان غيرهم وقتلهم.

وبهذا الزمان انصب اهتمامنا على كتب دير سيدنا مار برصوم فجددنا الكتب العتيقة بمعونة الله ، وهيأنا ورقا وكتبنا فذقيثين (٥٣) للدير لتذكار المطران اثناسيوس اي زكي عمي ، والربان ايليا ابي الجسداني (٥٤) .

وفي هذه السنة ايضا اصلحنا عين الماء التي للدير ، وفي هذه السنة طرد العرب اسقف الجزيرة ، واخذوا الدير بمكاتيب ليست صحيحة وحبسوه في الموصل ، فمضى أهل رعيته الى بغداد وافتدوا الدير بمبلغ كبير ونجا هو ايضا .

وكان في هذا الزمان مجموعة من ارمن الرها مع قسيس يدعى كرابيت وراهبان يدعيان بروك واوسيج يشتمون جاثليقهم كثيرا ، ويتهمونه بأنه يبيع الكهنوت ، فأمسكهم غاضبا وحلق نقونهم وعند ذلك تزعموا انشقاقا وابتدعوا هرطقة فتبعهم نحو اربعمائة بيت من الأرمن وكانوا يدعون اوسيجونيين فاغتاظ الجاثليق جدا ، وأرسل رسلا وهدايا الى الحاكم وطلب منه ان يطرد هم من مدينته فقبل الهدايا منه ، واذن للأرمن ان يضايقوهم فتوالت عليهم الضربات،عندئذ قدم الاوسيجونيون هدايا للأمير

فأعطاهم أمرا أن يتدبروا كما يريدون ، فتبعوا الخلقيدونيين،وكان الأرمن كلهم وجماعتنا ايضا يبغضونهم ، لكن لما تضايقوا وجدوا رجلا اسكندرانيا كان يعرف اللغة العربية وكان داهية ومتكلما فمضى الى نور الدين واتهم الجاثليق وبطريركنا والرهاويين بتهم شتى ، وقال لقد اتى رسل مع رسائل من ملك اليونان الى الأرمن والسريان ليسلموه الرها ، وعند ذلك سيق المطران اثناسيوس الى حلب ومعه الأرمن وغيرهم من أهل الرها ، لكن لما اتضح الأمر ، ووجد أن الاسكندراني كاذبا طردوه ، فهرب الى بلاده ، ورجع أهل الرها بسلام.

زيارتنا لآمد وموت الجاثليق نرسيس

بعد هذا اتى الينا قسيسان من الأوسيجونيين ، ومعهم راهب من اتباعهم ليشتكوا على الجاثليق ، فاكتشفنا انهم يفهمون كلام اثناسيوس وكيرلوس والآخرين بطريقة خاطئة ، وقالوا ان هذين القديسين قد قالا : ان للمسيح طبيعتين وفي بعض الأوقات طبيعة واحدة .

فأخذنا نشرح لهم قول القديسين من كتبهما ، وحينئذ تخلوا عن غضبهم على القديسين ورجعوا الى استقامة المجد وكتبنا معهم رسائل الى الجاثليق ليغفر لهم ، ولما مضوا وجدوا نرسيس الجاثليق قد توفي في تلك الأيام ، ثم ان هؤلاء الرهبان اتوا وسكنوا في اديرتنا،اما اوسيج رئيسهم فمضى الى انطاكية وصار خليقيدونيا كليا وتبدد الباقي .

وبعد ديونسيوس ارتسم لآمد ابراهيم تلميذه ، لكنه مالبث ان توفي بعد ثلاثة اشهر ، واما الحاكم فقد أمسك بالقساوسة ليأخذ المائة دينار الذي فرضها عليهم ابو سعد العاصي، وكتب الينا اذا كنا لن نرسل من يعطيه في كل سنة مائة دينار فسوف يخرب البيع ، وعند ذلك سلمت نفسي للرب ، ومضيت الى هناك ، ولما سمع الحاكم اندهش واكرمنا كثيرا ، وادخلنا بترحاب عظيم ، فوجدنا البيع البهية ممنوع الدخول اليها وقلاية (مقر)البطريرك المتوفي قسم منها خرب كليا وقسم حوله الحاكم الى مستودع لقطنه ، وقد تعبنا كثيرا وصرفنا اموالا واموالا لاصلاحها ، ثم اننا بمعونة الله تعالى اصلحنا ايضا البيعة التي في دير قنقرت (٥٥) وكانت مبنية من اللبن والخشب وشبه مهدمة ، وبقوة الرب اجتهدنا في بنائها بحجر وكلس.

اما أولاد قربة الذين بالسجن ، وكان يطلب الحاكم منهم الفي دينار فتوسطنا لهم فبـاعنا اياهـم بثـلاثمائة دينار ، فـأطلق سراحهم ، ثم مكثنا هناك كل فصل الشتاء ، ولما انتهت الأعياد ورسم ايليا الذي دعي اياونيس لكيسوم ارتحلنا في الأسبوع الثاني للعيد الى ماردين .

لما توفي نرسيس جاثليق الأرمن يوم الخميس في اب كان احد أولاد أخيه راهبا ، والآخر اسقفا ، وعندما توفي لم يكن الكبير حاضرا فأعطى خاتمة للصغير وكرزه جاثليقا ، ثم اتى الاخ الأكبر بسرعة لكن الصغير لم يتركه يدخل فالتجأ الى ختنه مليح حاكم قيليقية الذي قدمه الى نور الدين ، فأتى ومعه أمر من الأتراك فخاف الأرمن ان يسلم نور الدين البلدة الى مليح ، فأتى جماعة من الأرمن واقتادوا الصغير قسرا الى قلعة الروم ، فربطه ابن عمه ووضعه في السجن وارتسم هو جاثليقا ، وكان ذلك يوم الأحد ٢٥ ايلول سنة ١٤٨٤ يونانية ، وهكذا افتضح أمر هؤلاء المسيحيين لأن رئاسة كهنوتهم لم تكن بحسب الشرائع والنواميس الالهية ، وانما هي كالملوك الطغاة ، وأما الجاثليق الجديد المدعو كريكوروس فدعا الى رسامته اثنان من مطارتنا القريبين منه وهم غريغوريوس مطران كيسوم ، وباسيليوس مطران رعبان ، وقام فأرسل لي رسلا ورسائل فيما بعد قال فيها : كنت أرغب وأتمنى أن تحضر وترسمني وتضع يدك على رأسي بدلا من يمين غريغوريوس ، فتبهج الأرمن لأنها هي تمنحهم رسامة الكهنوت ، لكننا كنا في عجلة من أمرنا لأن الخطر كان يحيطنا من عساكر الترك فأكملنا لذلك الخدمة .

وأما انا فأرسلت له جوابا وشفعته بالبركات والصلوات ، لكني لم أنس ان أتطرق الى القوانين الكنسية الرسولية الخاصة القائمة على المحبة ، ونبهته الى الخطيئة العظيمة التي تنشأ من ابتياع الكهنوت ، الأمر الذي هو عند الأرمن ناموسي ، ثم أوردت الكلمة التي قالها بطرس العظيم لسيمون الساحر ، فأعجبت جماعة

الأرمن ، وحسنت لهم ، لكنها لدغت رؤساءهم ، ثم توسطت لابن عمه فأخرجه من السجن .

وبهذه السنة كثرت الأمطار في كل مكان وأفسدت الأراضي وصارت سيول جارفة اتلفت اثمار الأشجار والكروم ، لكن بعد هذه الأمطار والسيول زرعوا الحنطة وباقي الحبوب فأعطت غلات عظيمة .

وفي هذا الزمان ـ سنة ١٤٨٦ ـ حدث ضدي تمرد كبير ، وهذه المرة من اخوتنا لأنني عندما دعيت لهذه الخدمة جاهرت بالقوانين المقدسة ، وحاولت ان أعيد كل شيء الى نصابه ، وأطبق شريعة الآباء ، واتمسك بالنواميس الكنسية التي تحللوا منها في هذا الزمان ، وخاصة الكهنة الذين لم يعودوا يرسموا كاهنا من اية رتبة كانت الا بالرشوى ، فألغيت هذه العادات الرديئة ، وأمرت انه لايجوز لأحد أن يخطف رعية أو بيعة ، ليست له أصلا كذلك لايجوز لأحد ان يحتكم الى الملوك والحكام ، او ينتقل من رعية الى اخرى بغير امر ناموسي .

وعند ذلك قام علي مطران دمشق ، ومطران جيحان ، ومطران طور عبدين ، ثم لحقهم في ثورتهم علي مطران قالاينقوس ، دنحا الذي يدعي ايوانيس .

وكانت الرعية تتمرد عليه منذ زمن البطريرك مار اثناسيوس ، وكانوا يتهمونه باتهامات شتى ، وقد حرمه البطريرك المذكور عدة مرات لكي يتقوم ، كذلك اتى الي هؤلاء المؤمنون وشكوه وعرضوا علي نفس ماكانوا يعرضون على البطريرك السالف ، بل وزيادة ، وقد حاولت ان أعالج الأمر معه بالحسنى ضمن نطاق العلاقة الأخوية الكهنوتية ، وكنت أحضه على ترك العادات غير الناموسية ، وكان قد أتى الشعب الي مرارا خلال ثماني سنوات ، وفي كل مرة كان يزيد في تعنته ، ثم اجتمع مجمع في دير مارحنينا حيث شهد عدد كبير ضده ، ثم أمر المجمع ان يترك الرعية

ويجلس في الدير الموجود في تخوم ماردين لمدة ثلاث سنوات ، فقبل بهذا القرار أمام المجمع ، لكنه مالبث أن داس الناموس ومضى الى جماعة من الذساطرة كانوا رؤساء ومدبرين في بلاد ماردين ، واشتكى علي ، وقد تعبت كثيرا معهم حتى فهموا الحقيقة ، واكتشفوا أعماله،عندئذ طردوه ، فسعى الى الوالي وعرض عليه رشوى كبيرة ان قتلني لكن الرب أشفق علي وعلى بيعته ايضا ، ثم أرسل الوالي جنودا فأخذوني الى الموت ، وعندما اوقفوني أمامه تكلم معي بكثير من الفظاظة والقساوة والغضب لكن الرب الذي قال للمؤمنين أنه يعطي في تلك الساعة مايتكلمون به ، وهبني أنا الخاطىء وغير المستحق القدرة على الكلام والدفاع ، فثبت الحق ، وعرف الحاكم الحقيقة فطرده ، ولم يكن معي في ذلك الوقت بعد الله سوى الربان ابو خير أرشيد باقون ماردين ، فليغفر الله له ، لكن الشيطان عاد الى قلبه وعقله وملاه حنقا علي ، فمضى الى ملك الموصل ، وأوغر صدره علي بكلام ووشايات غير صحيحة ، ثم وعده بألف دينار ، حينئذ أرسل جنودا وساقوني الى نصيبين ومضى معي مار أثناسيوس مطران الرها ، ومار يوحنا وعدد كبير من الرهبان ، ولما وصلنا الى المعسكر أخذوني الى نائب الأمير سيف الدين (رئيس المعسكر) فأخذ يتكلم معي بهدوء قائلا انتم تحت حكمنا الآن بأمر الله ، ولايحق لكم أن ترفضوا أمرا ملكيا ، لكن قبل أن تجلد وتهان عليك ان تنفذ أمر الملك غازي الذي صدر من قبل ، فأمر ان يكون هذا المطران راعيا لشعبكم الموجود في كل المدن التي تحت سلطته والواقعة مابين النهرين · قالينيقوس وحران وسروج وبلاد الخابور رعيه لهذا المطران ، ويجب أن تنفذ هذا وتعود بسلام ، وإلا فستحدث أمور سيئة جدا.

لكن الرب ساعدني وعاضدني فهيأت نفسي للموت ، وقلت له بشجاعة : إن كتب الشرائع ثلاثة هي : توراه العبرانيين ، وانجيل المسيحيين ، وقران المسلمين ، فأرجو أن تفحصوا فيها جيدا ، وخاصة في القران فستجدوا أن الله لم يأمر الملوك أن يدبروا

امور الايمان بالسيف ، لأن الايمان يصير طواعيه وليس بالغصب ، ولأجل هذا كل الخلفاء الراشدين ومن اتى بعدهم من الخلفاء المسلمين حافظوا على الشريعة الالهية ، وحفظوها وصنعوا كما يأمر الله

قد يكون قد وقع اضطهاد على المسيحيين خلال بعض الفترات ، لكن احدا لم يتدخل او يتسلط على إيماننا ، ولم يطلب منا تغيير او تعديل شرائعنا ، او قوانيننا الدينية ، والآن أنتم إذا كنتم تريدون أن تتدخلوا فيما لم يتدخل فيه الخلفاء قبلكم أو تغيروا ما لم يغيره ائمة هذه البلاد منذ فجر الاسلام وحتى اليوم ، فاعلموا انكم سوف تصيرون أعداء ليس لي ، بل لموسى ، وعيسى ومحمد(ص) لأنكم بهذا قد نقضتم وابطلتم كتبهم الثلاثة.

اي تكونوا قد ابطلتم اوامر الله ، والأدهى من ذلك إنكم تريدوا أن تعطوا الحق لمن ليس له وتسوغوا وتدعموا كل مارق على الدين وعلى شعبه ، وهذا هو شعب المدن التي قلت عنها موجود اسألوه اليس هو الذي رفضه ونبذه ، واتى الي شاكيا عليه ، لقد اتى يحتمي بالسيف الملكي لأنه صنع الأثم ، وطرد من قبلنا ولم يعد له حق عندنا.

إن امرك لي أن أعيده الى شعبه الذي لفظه طلب مني أن ادوس وانقض وابطل امر الله ، وإنه لأسهل علي ان يقطع راسي من ان افعل ذلك ، ثم مددت عنقي طالبا قطعه ، حينئذ قام رئيس العسكر ، ودخل الى خيمه الملك ، وبعد وقت طويل خرج وامسك بيدي وادخلني وحدي ، ولم يسمح أن يدخل معي احد لا من المطارنة ولا من الرهبان ، وقد طالت مقابلتي معه وكنت اناديه بالملك فنبهني ذلك الثاني (رئيس العسكر): قل الملك سيف الدين ، ثم خاطبني الملك قائلا : ايها البطريرك لقد امرنا ان تطبق ناموسك ، ولن نسمح لأحد أن يعصي عليك ، فصليت وقبلت النعمة وخرجت وانا اشكر الرب ، ودموعي تنهمر على وجهي ، وعندما اخبرت المطارنة والرهبان ابتهجوا ، أما ذاك المطران المنبوذ فكان واقفا وحيدا ، ثم

هجم يريد أن يقتلني ، وصرخ أمام الجميع قائلا : يامسلمين اعلموا ان هذا الشيخ أثيم ومضلل ، إنه يسكن تحت حكم العرب وحمايتهم وبالوقت نفسه يستجلب العرب ليجعلهم مسيحيين ، ولدي كتاب بخط يده في هذا الخصوص ، ثم أخرج قرطاسا كنت قد كتبته منذ زمن لأجل ابن كميب ، وعرضه عليهم ، فلما سمع المسلمون هاجوا واخذوا حجارة ليرجمونني فهرب رهباننا ، لكن الله تحنن علي ففحصوا القرطاس ، ووجدوه يتكلم عن ابن كميب ، وهيأ الباري تعالى في ذلك الوقت عرب من أهل ماردين فشهدوا أن ذاك كان راهبا ، ولم يكن مسلما ، حينئذ أعطاني الملك سيف الدين كتابا ورجعنا بالسلام ، أما هو فمضى الى بغداد ليشتكي علي للخليفه ، ولما سمعت بذلك أرسلت رسائل للمؤمنين الذين يسكنون هناك ، فطردوه فأتى بعد هذا إلينا من انطاكيه وطلب الغفران فصلينا عليه وارسلناه الى جبل الرها بانتظار أن نخصص له مكانا في دير ماربرصوم ، لكنه توفي قبل وصولنا ، ليغفر له الرب امين.

وفي سنة ١٤٨٦ يونانية قتل مطران طور عبدين اغناطيوس ، وقد كان مهتما بجمع الدراهم وكان يسعى لها لتحقيق ذلك بكل الوسائل والحيل ، ولما وبخناه لم يخجل منا بل زاد شرا على شر ، واعتمد على العصاة ليساعدوه في جمع الذهب ، وذات ليله من ليالي الآحاد ترك كنيسته ومضى الى السلطان ليشي كعادته بالرهبان والقسس والعلمانيين ويرميهم في السجن مختلقا أسبابا واسبابا ، فالتقى به الاكراد ليلا ، وعندما فاجأوه هرب الذين معه فضربوه وعذبوه ، واخيرا دقوا اسفينا من الخشب في اسفله وتركوه وهو يحتضر ، وصدف أن راه بعض عابري الطريق ، فلما اخرجوا الاسفين من اسفله نفقت روحه ، وقبل مدة كانوا قد قتلوا في حاج قرياقوص هو ورجال مؤمنين ، ومرزوق القسيس واخيه برصوما واولادهم ، فظن الناس أن هذا المطران الشقي هو الذي أرسل العصاة ليقتلوهم ، لكن لما قتل هو ايضا عاد فخمن الناس أن أهل اولئك ارسلوا القتله طلبا للثأر ، وأن ذلك لم يحدث صدفه.

وفي هذه السنة تمرد علي الرهبان في دير ماربرصوم ، وسوف أوضح السبب فيما بعد.

وفي ذلك الزمان حدث في البيعة انشقاق بعد موت ماريوحنا البطريرك ابن شوشن ، فاجتمع المجمع في دير مار برصوم وقبل أن يقيموا رئيسا طلب الرهبان من الأساقفة استقلالية الدير ، وعدم جعله تابعا للبطريرك ،والسبب في ذلك أنه فيما مضى ، عندما كان بعض الملوك يتضايقون من البطاركة كانوا يضعون أثقالا وأعباء ماليه على الدير ، وفي بعض الأوقات كان البطاركة يأخذون من خزانة الدير أواني من الفضة ، وفي أوقات أخرى اقترضوا ذهبا لكنهم لم يردوه ، فلما أخذ الرهبان قرار استقلالية الدير موقعا من المطارنه الذين شاركوا بالمجمع ، لم يقبل به البطاركة الذين أتوا فيما بعد ، وقال اثناسيوس ويوحنا الذي بعده واثناسيوس الثاني :إن هذا القرار يجب أن يكون موقعا من بطريرك ذلك الزمان لأن المطارنة ليس لهم الحق أن يتخذوا مثل هذا القرار ، لذلك اعتبروا هذا القرار لاغيا وباطلا لأنه سيكون سببا للفتنة ، ومن شأنه احداث شرخ بين كل بطريرك يقوم وبين رهبان الدير ، أما أنا فلاني نشأت وعشت في الدير ، فقد أردت أن أمنح الدير معونة فثبت قرار استقلاليته والزمت المطارنة أن يضعوا تواقيعهم ظنا مني أن هذا سوف يبطل الانشقاق والخلاف بين البطاركه الذين يقومون في البيعه وبين الرهبان الذين يستلمون الدير ، لكن الانشقاق زاد وصارت فتنه بالدير وانشق الطرفان الى فريقين متخاصمين.

وعندما بدأ الشغب في الدير أخذنا نعالج الأمور بالمشوره مع الأساقفه والرهبان ، فقام المؤمنون بالتوسط ليرجع المنقسمون الى التوبه ، وأرسل الجميع الي في دير مارحنينا طالبين مني الرجوع للعمل على الصلح وتسوية الخلافات ، فأتيت معهم الى أمد حيث خرج الحاكم واستقبلنا بترحاب وإكرام ، ثم صلينا في البيعة التي بنيناها هناك ، وكان ذلك يوم الأحد في عيد القديسة بربارة أي يوم الرابع من كانون الأول ، ثم وصلنا الى الدير وكنا بحاله تعب

واعياء شديدين ، وبعد أن تكلمنا كلام مجاملة مع المطارنة ومع الجمع الموجود اتفقنا على تسوية كل الخلافات ، وكتبنا ذلك ، وبطل انشقاق البيعة ، وصار صلح وسلام وخرج كل أهل الدير راضين.

وبهذا الزمان كان يوحنا مطران حمص الرجل الفاضل مستنكفا منذ فتره طويله عن رعاية الشعب لضعفه وشيخوخته ، وكانوا يتوسلون اليه أن لا يترك رعيته التي وهبت له من الله امور رعايتها ، وكان كلما توسلت اليه رعيته أن يستأنف عمله كان يعود ، لكن سرعان ما كان يغير رأيه ويرجع الى الدير ، وبقي على هذه الحالة مدة عشر سنوات ، ثم اشفقنا عليه انا وكل الأساقفة الحاضرين ، فرسمنا داوود الراهب من دير مار حنينا لمدينة حمص ، ودعي ديونسيوس.

ولما ارتسم المطران داوود على حمص توفي بعدذلك فأتى الينا زعماء الرعية طالبين الشيخ مار يوحنا ، فرجع الى الخدمه.

وبهذا الزمان توفي المطران اثناسيوس اي ابي غالب المتوحد ، والذي ارتسم بجيحان ، وقد توفي في ديره في بلاد جرجر المدعو دير أبي غالب.

وفي هذه السنة توفي يوحنا أسقف سميساط في دير مار حنينا ، وكذلك توفي أغناطيوس أيضا مطران جرجر والذي هو رومانوس مطران تل ارسانيوس بملطيه في بيعه ابويه ، وصارت رسامة مار اثناسيوس اي الربان صليبا أخانا في دير مار حنينا في ٩ تشرين الأول يوم الأحد.

في سنة ١٤٩٢ يونانية وقعت فتنة بين السلطان قلج ارسلان وبين ختنه نور الدين ، لأنه كان يضطهد ابنة السلطان بسبب عشقه لزانية شيطانية ، فخرج صلاح الدين حاكم مصر الى نجدة نور الدين ومحاربة السلطان ، فأمر السلطان بهدم سور كيسوم وسبي سكانها ، أما نور الدين فقد اتحد مع صلاح الدين على نهر كوسكو ، وكادت ان تخرب البلاد لولا أن الرب قد أشفق فأرسل

السلطان رجلا حكيما الى صلاح الدين ، ثم تم الصلح وتوقفت الحرب.

أما السلطان فقد اتى الى ملطيه وجدد سوريها ، وأما صلاح الدين فقد رجع الى مصر.

زواج البرنس حاكم أنطاكية من احدى الزانيات

في تلك السنة ترك البرنس حاكم انطاكيه امـراته اليونانية التـي تزوجها بحسب الناموس في القسـطنطينية ايام الملك منويل وتـزوج امراة زانية ، ولم يأبه لقرار بطريرك روميه ، اما بـطريركهم الذي بأنطاكيه فقد حرمه وحـرم القسـيس الذي عقـد زواجـه على تلك الزانية ، وحرم المدينة كلها لأجله فأبطل قرع النواقيس ، واوقـف تناول القرابين والصلوات على الأموات قبل دفنهم ، امـا البـرنس فقد غضب وقام بنهب كنائس الافرنج والأديرة ، وبعد مـدة اجتمـع القضاة وجملة من النبلاء برئاسه بطريرك القدس حيث توسطوا مع بطريركهم فـأعاد البـرنس كل مـاخطفه وثبتـوا له تلك المراة واصطلحوا ٠

وفي تلك السنة عصى امير حران والرها على حاكم الموصـل وعاد فاتفق مع صلاح الدين وبوساطة هذا الاتفاق ملك صـلاح الدين على منطقة ما بين النهرين ، واتفق مع نور الدين وامـا حـاكم الموصـل وحكام ماردين وآمد والأرمن فاجتمعوا ليقاوموا المصريين ، لكنهـم انهزموا بدون حـرب أمـام صـلاح الدين ، فـدخل ملك مصر إلى الموصل ، وحل عليها ، لكنه سرعان ما ترك الموصل ربما لأجل المطر الذي كثر عليهم ، أو بسبب اخر ورجع.

اما حاكم ماردين وحاكم سنجار فقد خضـعا للسـلطان المصري لكن حاكم آمد رفض ، فتـوجه صـلاح الدين اليه بعـد أن وعد نور الدين انه سوف يأخذ آمد ويوليه عليها ، ووصـل اليهـا يوم أحـد الشعانين فحـاصرها ، وبعـد عده أيام اسـتولى على السـور الخارجي ، حينئذ سلمها ابن نيسان ذلك المسكين ، وخـرج منهـا بطريقة مذله ، وملك عليها نور الدين حاكم حصن كيفـا ، وكان ذلك سنة ١٤٩٣ يونانية.

في تلك السنة مات سيف الدين حاكم الموصل وأتى من بعده أخوه عز الدين وفي سنة ١٤٩٣ يو نانية تـوفي الصـالح حـاكم حلب ، واعطيت حلب لعز الدين حاكم الموصـل الذي ملك بعـد أخيه سـيف الدين ، لكن ذاك مالبث أن اعطاها لأخيه وأخذ منه سنجار ليبعـدها عنه.

في السـنة ١٤٩٢ يونانية أتـى السـلطان قلج أرسـلان الى ملطيه ، وسأل عني وأرسل لي رساله محبة وود وأرفقها بهدية كانت عباره عن عكاز (عصا) الرعاية الخـاصة بـالكهنوت ، وعشرين دينارا من الذهب الأحمر ، وقـد أدهشـتـ هذه المبادرة الطيبة الجميع ، وفي السنة التالية اتى ايضا وقبل أن يدخـل ملطيه سـمع بالانشقاق الذي صنعه ابن وهبون تـادروس ، فـأرسل إلي رسـلا ودعاني لمقابلته في ملطية ، ودهشت لأني رأيت هذا التصرف غريبـا عن العاده فخفت للوهلة الأولى أن تكون هذه الدعوه وهـذا الاكرام الذي لم نعهده من قبل هو السم في الدسم ، لكنني تـوكلت على الله وتوجهت الى ملطية ، ووصلت الى مشارفها يوم الخميس ٨ تمـوز عام ١٤٩٣ يونانية (١١٨٢ م) وقت البـكور ، وكانت مفـاجئتي كبيرة عندما وجدت السلطان قد خـرج مـع ثله مـن العسـكر للقائنا ، وكان وراءه كل اهله بالمدينة ، ولم يكتف بذلك بـل أرسـل إلينا رسلا تقول: إن السلطان قد أمر أن يكون دخول البـطريرك الى المدينة بحسب تقـاليد المسـيحيين أي محـاطا بـالصلبان والأناجيل ، أمـا المؤمنون فقـد حملوا المصـابيح التـي لا تحصى ، ورفعوا الصلبان على الرماح وأخـذوا يرتلون ويسـبحون بأصوات جميلة مليئة بالفرح والاعتزاز ، ولما واجهني السـلطان لم يدعني أترجل عن ظهـر مـركوبي لآخـذ يمينه ، بـل عانقني بذراعيه ، ثم بدأت أتكلم معه بواسطة المترجم ، وكان يسـتمع الي باهتمام ووجه باش ، ولما رايته انه يحـب أن يسـمع اطلت الكلام كثيرا وكنت أستشهد دائما من الكتاب ، ثم مـزجنا الكلام بـالوعظ الديني والحكم ، حتى كادت أن تجري الدموع مـن عينيه فشـكرنا الرب العـالي ، كذلك كل المسـيحيين شـكروا ومجـدوا حين رأوا

الصليب في موكب ملوك المسلمين ، وهكذا دخلنا البيعة ، وبعد موعظة تعليمية رفعنا أيدينا بالدعاء للحاكم وللشعب ، وبعد ذلك اليوم أرسل السلطان يبشرنا أنه قد الغى الخراج الذي كان موضوعا على الدير ، وأعطى أمرا ملكيا مكتوبا بذلك ، لذلك أرسل لنا يوم الأحد عليه من الذهب الخالص مرصعة بالجواهر والحجارة الكريمة ، وفي داخلها عظام القديس بطرس رأس الرسل وبقينا في ملطية شهرا كان فيه كل يوم يرسل لنا الهدايا ، وقد صارت نقاشات ومناظرات عن المسيح الهنا وعن الأنبياء والرسل ، ولما ارتحل السلطان من ملطيه خرجنا معه بناء على طلبه ، وفي الطريق كان هناك كلام طويل عن الكتاب بيني وبين فيلسوفه كمال الدين وهو رجل فارسي منطيقي ، فمدح حكمه السريان ، وفرح السلطان كذلك ، وكل ذلك صار ليس لكوننا مستحقين هذا ، بل لأننا نمثل الشعب ، فقد اراد الله أن يعز هذهالأقليه الصغيره والبيعه التي ضعفت بتطاول ابن وهبون ، لكن الله لم يشأ أن يطيل فرحتنا فقد احترق دير سيدنا ماربرصوم ، وكان ذلك يوم السبت ٣٠ تموز سنة ١٤٩٤ يونانية ، أما الحادث فكان بسبب أحد الرهبان،فقد نسي هذا الراهب واسمه دنحا ، وكان شيخا كبيرا شمعته مشتعلة ، ومضى للكرم فالتهمت النار كل شيء ، خاصة أن الدير كان من الخشب من سقفه إلى أساساته ، بل كانت الأبنية ملتصقة ببعضها بعضا ، وقد حدث هذا عندما كنا في الصلاة فسارعنا عندما سمعنا الصراخ إلى خزانة القديس ، وأخرجنا الصندوق الذي به يمين القديس مار برصوم وعظام القديس بطرس ، وخرجنا تاركين كل شيء للنار التي التهمت بشراهة القلالي وبيوت الجميع ، وبيوت الرهبان والمبتدئين ، وكل مابها وامتدت إلى الهيكل العتيق وأكلت الكتب وأواني الفضة والنحاس وذاب الحديد من شدتها ، وتحولت الحجارة إلى كلس ، وحتى أبواب الدير الحديدية احترقت وسقطت الأسوار ، ونقول بالاختصار إنه لم ينج شيء أبدا إلا البيعة الجديدة التي بنيت من قريب وبرج الدير العالي ومغارة الفرن والباب الخارجي المدعو باب جرجر ، أما ماتبقى فقد تحول إلى رماد ويوم

الأحد سقطت إحدى القناطر وقتل بها صبي من بلاد جرجر كان قد أتى على صوت الناجين ، وقد رأينا ثلاث عجائب أولها بأنه لم يتأذى أحد قط من أهل الدير سواء كان من الرهبان أو من المبتدئين ، وكانوا يغامرون ضمن النار لينقذوا شيئا من مقتنياتهم ، وتشبه هذه العجيبة قصة القديس الذي سأل الله أن ينزل البرد ، فأنزله وأفسد الكروم ، لكن كرم المؤمنين لم يفسد ، والعجيبة الثانية أن قبة الخشب الموضوع بها عظام القديسين كانت داخل الخزانة ، فبقيت ولم تحترق ، وهذه أشبه بأعجوبة الفتية الثلاثة الذين حفظوا في أتون النار بغير ضرر لأن روح الله كانت معهم .

أما الأعجوبة الثالثة فهي احتراق كتب كثيرة لم يكن يقرأها أحد أو حتى يفتحها ، فاحترقت بالنار وكأنها زائدة ، أما الكتب التي كانت تقرأ باستمرار فقد حفظت بالرغم من النار ، وهذه الكتب كانت أناجيل تقرأ على مدار السنة نحن رتبناها ووضعناها ، وقد بقيت سالمة ولم تحترق ، وقد بقينا في البرج نحن الرهبان مدة شهر حتى هدأ الغضب ، وحينئذ بدأنا بالبنيان ، وخلال ثلاث سنوات بنينا كامل الدير ، وكان أجمل مما كان ، أما البيعة فقد استغرق بناؤها اثني عشر عاما ، شكرا للرب الذي أتمها .

بعد أن رجعنا إلى ملطية مضى السلطان قلج أرسلان إلى بلاد الروم وملك على اثنتين وسبعين قلعة من قلاع اليونانيين وكتب إلي الرسالة التالية :

من قلج أرسلان العظيم سلطان كبدوكية وسورية وأرمينية .
إلى فلان البطريرك محب مملكتنا ، والداعي لنا بالنجاح الجالس في ديره دير مار برصوم والمطمئن في شرف مملكتنا نعلمه أنه بصلواته وهب الله العظمة لنا .

لما خرج من فيلادلفيه المجيدة ، وأتى إلينا ابن أكوماك الرومي وأولاده ، وسجد قدام كرسي مملكتنا طاعة لنا أرسلنا معه أربعين

ألفا ، ولما علم الأعداء اجتمعوا بالمدينة الكبيرة ألوفا وعشرات ألوف وأتوا الينا وحدثت معركة قتلناهم فيها ، ولن يستطيعوا أن يتعافوا من هذه الضربة لفترة طويلة ، وقد استولى عسكرنا على قلعة دياديف الكبيرة ، ثم أخذوا جميع البلاد حتى ساحل البحر ، وقد خضعت كل هذه المناطق لنا وطبقنا عليها شرائعنا وقوانيننا ، وهذه الأرض لم تكن من قبل للترك لكننا نعلم أن بوساطة صلاتك أعطانا الله تعالى هذا الانتصار ، وإننا نطلب أن تتابع صلاتك لأجل مملكتنا ، عافاك الله (٥٦) .

وبعد هذا كانت تأتيني عدة رسائل من السلطان من وقت لآخر .

أخبار أندرونيقوس اليوناني

في سنة ١٤٩٤ يونانية ملك على اليونانيين أندرونيقوس الذي كان قد طرده منويل ، وكان هذا قد عاد إلى القسطنطينية فتظاهر بالطاعة للصبي ، لكنه مالبث أن رمى امرأة منويل وابنتها وصهرها في البحر ، ثم قتل الفتى الكسي سرا ، وقتل أكثر من ألف من الزعماء حرقا بالنار ، وسمل عيون عدد كبير غيرهم ، بعد أن سبى مقتنياتهم،ثم تزوج هذا الشيخ الدنس قسرا امرأة الصبي الكسي ، وارتكب كثيرا من الفظائع ، ثم طرد الأفرنج من العاصمة لأنهم كانوا يساعدون الصبي الكسي كونه كان ابن أفرنجية ، لكن هؤلاء لما طردوا من بيوتهم أحرقوا أربعة عشر ألف من ديره وقرى بلاد اليونان ونزلوا إلى رومية ، وأحضروا عساكر من الأفرنج ، كذلك أتى ملك صقلية فاستولوا على مدن كثيرة من سورية كانت تحت حكم اليونانيين ، فخربوها وهدموها وأحرقوها وأخلوها من السكان .

في هذا الزمان أتى ثلاثة أخوة إلى السلطان أخذوا عساكر من الترك ومضوا وملكوا على فيلادلفية ، لكن بعد مدة أتى عليهم أندرونيقوس الطاغي فقتل أحدهم ، وهرب الاثنان من وجهه ، لكن أحدهم واسمه ايسوفيوس (اسحاق) أتى وقتل أندرونيقوس .

في نيسان من عام ١٤٩٦ يونانية خرج صلاح الدين من مصر فاجتمع إليه نور الدين وباقي أمراء مابين النهرين ، وحدثت حرب استعملت فيها المنجنيقات وكل أنواع الأسلحة ، لكن الترك لم يستطيعوا أن يصمدوا أمام الأفرنج فهربوا ، وحينئذ توجه الأفرنج لبناء القلعة وتحصينها فاستغل الأتراك انشغال الأفرنج فسبوا السامرة ونواحيها ، وقتلوا العديد ، لكن الأفرنج لحقوا بهم فخلصوا الأسرى .

في عام ١٤٩٦ يونانية اشتد داء الجذام على بلدوين ملك القدس فأعطى المملكة لابن أخته وكان صبيا اسمه بلدوين أيضا ، ولما تملك هذا توفي الملك المريض بعد سنة .

وفي هذه السنة مضى صلاح الدين ايضا إلى الموصل ولما لم يستطع أن يملكها رجع وحل على ميافارقين ، وبعد حروب كثيرة اشتراها بالذهب وملك عليها ، ثم عاد إلى الموصل ، وبعد مفاوضات كثيرة ووساطات بينهم اتفقوا أن يكون حكام الموصل تحت طاعته مثل حاكم ماردين وحصن كيفا واصطلحوا .

وبعد موت قطب الدين حاكم ماردين مات أيضا نور الدين حاكم حصن كيفا في آمد ، وقد حدث موته فجأة لأنه أخذ من البيعة أعمدة رخامية وأدخلها لداره ، فضربه الله بغضبه ، وملك بعده ابنه قطب الدين الصبي .

أما في ماردين فقد أقاموا صبيا يدعى حسام الدين واثنان هما من أبناء الجواري ، فأما أخو الأمير نور الدين المدعو عماد الدين والذي أحدث ضجة بعد موت أخيه أخذ قلعة زياد .

بعد هذا مات أيضا حاكم الأرمن ، أمير شاه أرمن ، وكان شيخا لم يكن من أسرته من يملك بعده فتوجه مسرعا أحد عبيده واسمه بكتمر ليملك ، وبينما كان يعبر أمام جبل ساسون تعرض له ابن أخت جاثليق الأرمن الذي خرج من قلعة الروم ، فأمسك ببكتمر هذا واقسم له وأعطاه قلاع أبيه بيكين

وبهذا الزمان ـ ١٤٨٧ ـ ارتسم مطران لشبختان اسطفانوس وارتسم بسيليوس لكورة جرجر وبسيليوس لقالنيقوس ، ويوم أحد تكريس البيعة احترقت كنيسة مار يوحنا بالرها ، فقد كانت منذ زمن مهجورة وخالية بغير كهنة يخدمون بها ، وكان الحكام يضعون فيها قطنا ، وقد عشش الحمام في سقوفها العالية ، وفي إحدى الليالي ترك الحراس المكان ، فاشتعل وأحرق الطوابق العليا ثم أتت

النار على كل شيء وحتى الأحجار وقد سقط منهـا اثنان وثـلاثون عمودا من الرخام وأصبحت خرابا .

أما البيع التي خربت أيام العرب فهي : البيعـة الكبيرة هـذه ، وبيعة الرسل ، وبيعة مار توما ، وبيعة مار ميخائيل ، وبيعـة مـار توما أي بيعة المنديل ، وبيعة مار جرجيس وبيعة المخلص (أبجر) وبيعـة والدة الرب المعلمـة ، وبيعتين أيضـا لوالده الرب ، وبيعـة الأربعين شهيد ، وبيعـة أخـرى للأربعين شـهيد كبيرة ، وبيعـة المعترفين التي في باب السـاعات ، وبيعـة اسـطفانوس ، وبيعـة تاودوروس التي أمام القلعة .

وفي هذه السنة اصطلح فرينز حاكم أنطـاكية مـع صـلاح الدين وتعاهدا أن لايعودا إلى الحرب ، فاحتال ظلما وأمسك روفين حاكم قيليقية ووضعه بالسجن بعد أن كبله بـالحديد ، ودخـل الى قيليقية وبقي كل الصيف يقاتل ولم يقدر أن يملك على اي موضع قـط ، لأنه قام مكان روفين أخوه لاون وحفظ بلادهم بحكمته فـرجع بـالخزي أخيرا ، وأخيرا أعطى الأرمن للفرنج ثلاثين ألف دينار والمصـيصة وأذنة وأماكن أخرى أيضا ، وخرج روفين مـن الحبس ، وبعـد أن نجا روفين تمرد على فرينز فنهب وأفسد كل بلاد قيليقية .

وفي نيسان سنة ١٤٩٧ يونانية أتينا من دير مـار حنينا الى دير مار برصوم وبرحمة الله ونعمه القديس سيدنا مـار بـرصوم رممنا الخراب الذي حل بأساساتها التـي كنا قـد بنيناهـا منذ سـبع سنوات ، وكنا قد وقعنا في مشاكل كثيرة منذ ذلك التاريخ ، وقد تعب معنا كثيرون في هذا الترميم .

وفي هذا الزمان أخذ الأمير حاكم الرها بـأمر حـاكم مصر بـلاد شبختان من حاكم ماردين ، فخرج هذا وتحارب مع شـعب الرهـا وانكسر ، وبعد هذا أتى صـلاح الدين ليملك على مـاردين ، ولما لم يقدروا أن يأخذوه بالخديعة جعلهـم تحـت طـاعته ، كمـا كانوا في عبوديتهم .

وبعد هذا ايضـــا نزل صـــلاح الدين على الموصـــل واســـتولى عليها ، لكنه مرض مـــرضا صـــعبا حيث قضى كل فتـــرة الشـــتاء في الخيام مع عساكره الذين هم أيضا أصيبوا بالمرض ، وقد شاع خبر أن صلاح الدين قد تـــوفي ، غير أنه لما تعـــافى أمســـك بحـــاكم الرها ، لكنه مالبث أن أعاده واصطلحا .

الصراع بين أندرونيقس واسحق

في أيلول يوم عيد الصليب سنة ١٤٩٦ يونانية تحفز اندرونيقس ملك اليونانيين ليقتل ايسيقيوس (اسحق) لأنه كان الوحيد الذي بقي من أسرة منويل على قيد الحياة بعد فتكه بكل سلالته ، فعلم ايسيقيوس بذلك فلبس درعه وامتشق سيفه وتحصن ببيته ، فارسل اندرونيقوس رئيس جيشه ليأتي به فلما نظره آتيا بحنق ، وعلم أنه سيموت لامحالة تشجع واستل سيفه وضرب رئيس الجيش فقتله ، ثم ركب فرسه سريعا وهرب للبيعة الكبيرة وسيفه بيده مخضبا بالدم ، وكان يصرخ ويولول ، فاجتمع عشرات الألوف من الناس ، ولما وصل الى البيعة سلم كل الرؤوساء الذين كانوا يشكون بالمنافق وينبذون فعلته الشنيعة التي قتل فيها كل سلالة منويل سلموا أن يصير ملكا لهم ايسيقيوس سليل الملوك ، وألزموا بطريركهم أن يرسمه ، ولما فعلوا ذلك في البيعة سمع اندرونيقوس فخرج من الأبواب ليهرب الى البحر فلحقوه في السفينة وأرجعوه وقطعوا جسمه بالسكاكين وهو حي ، ثم وزعوا لحمه من واحد الى واحد ، وأخيرا جمعوا لحمه وأحرقوه وسط الحشود .

وبهذا الزمان توفي اغناطيوس مطران القدس ، وقد تولى هذا رئاسة الكهنوت فيها مدة خمس وأربعين سنة ، وفي تشرين الثاني سنة ١٤٩٦ يونانية أرسل المطران أثناسيوس أخي مطرانا على القدس ، وقد قام عليه رهبانها بالاتفاق مع المطران تداروس بن وهبون (اريوس الثاني) وبقي يجاهد ضدهم حتى هلك ابن وهبون .

وفرح بهذا الزمان ـ ١٤٩٦ يونانية ـ كريكور جاثليق الأرمن فرحا كبيرا جدا بدافع الحسد والشماتة لما سمع تفاصيل أخبار احتراق دير مار برصوم ، وأخذ يشيع أن القديس مار برصوم قد

طار من الدير وأتى اليه معتقدا انه بمثل هذا الهذيان يشهر نفسه ، لكن الله مالبث أن انتقم منه لأنه حالما خرج من قلعة الروم ليمضي الى طرسوس تمرد عليه ابن اخته شاهنشاه ، واتفق مع الترك وحاول أن يعطيهم القلعة ، لكن الجاثليق لما سمع قفل راجعا بسرعة وجمع بعض الجنود ، وهاجم القلعة وقد وقع العديد من القتلى من رجال الجاثليق ورجع يجر أذيال الخيبة والاخفاق الى دير توبش عند كيسوم ، واعترف أمام الجمع أن مار برصوم أدبه ، ثم عاد ووعد أمام البار وايوانيس مطران كيسوم بالتوبة ، أما ابن اخته فقد تشرد وأخذ يتجول من مكان الى آخر وأخيرا اقسم على الطاعة ، فأتى الى الجاثليق وأعلن ولاءه فاصطلحا .

اجتماع الكواكب السيارة في مكان واحد

الاصحاح الرابع حول الزمان الذي تنبأ به المنجمون بأنه سيصير طوفان مثل طوفان نوح لكنهم كنبوا ، وحول باقي أنواع الأحداث التي وقعت بهذا الزمان والله المستعان .

في ١٤ أيلول في سنة ١٤٩٧ يونانية وقع أمر يستحق أن يحفظ بذاكرة الأجيال ، فقد اجتمع في ايلول سبعة كواكب سيارة كلها في برج الميزان ، وهذه الكواكب هي الشمس ، والقمر ، وزحل ، والمشتري ، والمريخ وعطارد ، والزهرة ، وكان قد قال المنجمون أنه لم تجتمع سبعة كواكب في برج الحوت الا وصار طوفان كالطوفان الذي حدث ايام نوح ، أما وقد اجتمعوا في برج الميزان فقد تنبأوا أنه ستحدث ريح صرصر تهلك الناس والبهائم والطير ، وقد قال بهذه النبوءة الكاذبة الوف من الناس وربما اكثر ، وقد ذاع هذا الخبر بالمشرق ومصر والهند ، وقد كتب لي المؤمنون من سجستان طالبين الصلاةلأجل نجاتهم ، وقد اعتقد بهذا اليهود والمسلمون والحنفاء الصابئة وعدد كبير من المسيحيين ، كذلك قالوا : ان الشمس ستكسف في هذا اليوم ، وسوف ترتج الأرض ويظهر كوكبان متنبان ، وقد صدق العديد من الملوك والرؤساء هذه الادعاءات فخزنوا القوت والمشرب ، كذلك هاجرت أعداد كبيرة الى بلاد أخرى وسكنت أعداد أخرى كبيرة بالمغاور والشقوق للصلاة والصيام ، أما الحنفاء واليهود والمشتغلون بالتنجيم وقراءة الأبراج فكانوا يسخرون من المسيحيين عندما كانوا ينظرون اليهم يصلون ، وكانوا يجدفون قائلين حتى الله لايستطيع أن يغير أو يبطل هذا الأمر الذي سيصير ، أما الذين كانوا يأتون إلي مستفسرين فكنت

اجيبهم « لاتسقط شعرة من رأسك الا بأذن ابيك الذي في السماء ، كما هو مكتوب ، وإن المنجمين يكذبون حتى لو كانوا يقرأون في الكتب » وكان بعض الناس يقول لي : ان المنجمين يستقرئون الطبيعة ؟ فقلت : اذا كان طوفان نوح قد حدث عند اجتماع الكواكب في برج الحوت كما يدعي المنجمون ، فلماذا لم يعرف ذلك عبدة الكواكب في ذلك الزمان ، ولماذا لم يعرف سوى نوح وحده فقط ؟ لكن الناس كانوا يعيشون بشكل عام في حالة هلع وخوف ، وعندما دنا اليوم الذي كان قد حدده المنجمون أخذ الناس منذ الليل يركضون الى المغاور للاختباء ، وصارت البلد في حالة من الهيجان كأنها وكر من النمل قد هدم ، لكن ماكاد الصباح يأتي حتى أشرقت الشمس وكانت دافئة جميلة ممتعة ، ثم أتى النسيم العليل وكانت الطبيعة تبدو في ذلك اليوم خاصة جميلة وبهية جدا ، وللحال مجد الناس الله تعالى ، أما الملوك فقد احتقروا المنجمين وطردوهم من مجالسهم .

الصراع بين التركمان والأكراد وحوادث أخرى

وفي سنة ١٤٩٦ يونانية ابتدأت الحرب بين شعبي التركمان والأكراد وبقيت ثمان سنوات يتقاتلون فيها ويقتتلوا في أرمينية وفي اثور وبين النهرين وفي سورية وكبتوكية .

أما سبب بدء هذا القتال فهو : كان التركمان يسكنون الخيام ، وفي الشتاء كانوا ينزلون الى البلاد الواقعة قبلي سورية حيث لاينزل ثلج ، ولايصير جليد ، وكذلك يوجد مرعى ، وكانوا في زمان الربيع يصعدون ثانية الى ناحية الشمال حتى يوجد مرعى لدوابهم ، وفي صعودهم ونزولهم كانت تمتلىء الطرقات بهم ، وهم يحملون مقتنياتهم ، وكان الأكراد يمتهنون السرقة في كل مكان ، فأخذوا يسرقون أغنامهم وقطعانهم وبقرهم وجمالهم ، وفي بعض الأوقات كانوا يقتلون بشرا منهم ، حينئذ ابتدأ التركمان يجمعون قطعانهم عند ترحالهم ، وحدث أن أمسك التركمان في بلاد شبختان عند حدود ماردين مائتين من اللصوص الأكراد كانوا كامنين للسرقة ، فقتلوهم كلهم ، حينئذ اجتمع عشرة آلاف كردي ، واجتمع اكثر منهم من التركمان واشتبكوا في حرب طاحنة قتل فيها نحو عشرة آلاف من الجانبين ، لكن الحرب عادت فاشتعلت على شكل أقوى عندما اجتمع ثلاثون ألفا من الأكراد من بلاد نصيبين وطور عبدين ، واجتمع بالمقابل التركمان من بلاد الخابور ، لكن الأكراد سرعان ماانكسروا وامتد قتلاهم من شاطىء نهر الخابور الى نصيبين .

بعد هذا عاد فاشتبك الأكراد مع التركمان في بلاد الموصل مرتان فانكسر الأكراد ، وهربوا من أمام التركمان ، ودخلوا الجبال عند حدود قيليقية ووصلوا الى حدود الأرمن ، وهناك أخذوا يختبئون بين بهائمهم ، لكن التركمان أتوا عليهم وقتلوهم كلهم رجالا ونساء

وأطفالا ، وأخذوا أموالهم ، وأبادوا الأكراد من كل سورية وبين النهرين ، لأن التركمان كانوا يبحثون جماعات جماعات في البقاع والجبال ، وحيث ماوجدوا الأكراد كانوا يقتلونهم بغير رحمة وبلا سبب .

وفي السنين الأولى لم يكونوا يؤذون المسيحيين ، لكن اخيرا بدأ التركمان يقتلون المسيحيين لسببين :أولهما أن الأكراد عندما كانوا يهربون كانوا يخفون أموالهم في قرى المسيحيين فاكتشف التركمان ذلك .

ثانيا لما كان الأكراد ينهبون قوافل التركمان لم يمنعهم الحكام الأرمن ، لذلك هاجموا شعوب أرمينة الكبيرة ، وسبوا الأرمن ، وأخذوا ستة وعشرين ألفا منهم وباعوهم عبيدا ، واحرقوا القرى ودير كرابيد الكبير ، وقتلوا كل الرهبان الموجودين به ، ونهبوا الكتب وكل مقتنياته .

وفي هذا الزمان أخذوا حربا قلعة تل عرب (٥٧)في بلاد شبختان واستعبدوا شعبها وباعوه .

وفي هذا الزمان قتلوا في تل بسمآ (٥٨) مائة وسبعين رجل سريانيا ، كذلك قتل عدد كبير من الشباب ، ولما رأى الحكام أن بلادهم قد خربت وأن القرى قد هجرت بدأ كل واحد يحارب التركمان في بلده ، فعم القتال كل بلاد كبدوكية وملطية .

وفي هذا الزمان دخل التركمان الى بلاد قلونية ، فقاتلهم الحاكم وقتل في قرية أمرون في البلاد نحو مائتين صبي ، وان اللسان لايستطيع ان يصف ماصار في تلك السنوات الثماني ، اذ من شرارة صغيرة عم الخراب والقتل في كل مكان .

في هذه الأيام كان في قبرص جزيرة اليونانيين حاكم يوناني اسمه قومنه تمرد على ملك القسطنطينية وجمع أساقفة اليونانيين وأمرهم

ان يرسموا لهم بطريركا ، فصنعوا كما أمرهم ، ثم قام هذا البطريرك فنصب قومنه هذا ملكا ، وكانوا ينادون به في قبرص ملكا ، وصار هو والبطريرك أضدادا للذين في القسطنطينية الى فترة خروج الافرنج من رومية حيث اتى ملك انجلترا وتملك على قبرص وحبسه بقلعة قرب انطاكية ، اما البطريرك الذي نصبه في قبرص فقد مات وانتهت عقيدتهم الباطلة ، وبعد هذا اعطى ملك انجلترا جزيرة قبرص للرهبان الداوية ، لكن لما ارتحل الملك الفرنجي عاد اليونانيون الى الظهور فاجتمعوا بعشرات الالوف على الحامية الافرنجية التي بقيت في قبرص ، وحاولوا أن يقتلوا الافرنج ويملكوا مكانهم ، ولما اشتعلت الحرب هزم اليونانيون ، لكن الافرنج بعد هذه الحادثة اقاموا في قبرص ملكا ، وكان هذا من قبل ملكا للقدس.

في سنة ١٤٩٨ يونانية يوم الجمعة ٤ ايلول خسفت الشمس لمدة ثماني ساعات ، وظهرت الكواكب في السماء .

في سنة ١٤٩٨ يونانية أتى إليّ مار يوحنا المفريان ، وطلب أن يترك الرعاية فرفضت طلبه ، لكنه ترك رعيته ومضى لدير مار يعقوب في جبل الرها ، ثم ما لبث أن ندم وعاد إلي فأخذ مني تفويضا وعاد إلى رعيته ، وكان ذات ليلة ينام على سطح البيعة فوقع ومات ودفن في دير مار متى ، ثم كتب إليّ أهل تكريت لأرسم لهم رئيسا للأساقفة وأعلموني أن عندهم رجل لا يحبونه يكنى ابن تمسح يقاتل ليأخذ هذا المنصب ، ويؤيده أناس فاسدون مثله ، وطلبوا منا ألا نقبل قط ابن تمسح صاحب الأفعال النجسة المنتنه ، ثم ارتسم الربان يعقوب ابن أخي ، وابني الروحاني بطريقة ناموسية ، وكان ذلك في دير مار ديميط بنواحي ماردين ، يوم الأحد أول دخول الصوم سنة ١٥٠٠ يونانية ، وسمي غريغوريوس رئيس أساقفة المشرق .

في هذا الزمان توفي مار مرقص بطريرك الاسكندرية ومصر ، وقد خدم البطركية ثلاثا وعشرون سنة ، وكان ذلك في كانون الثاني وارتسم مكانه البابا مار ايواينس .